لمسات ساحرة

بقلم

عامر عمر

تحضرون دائما .. ويغيب المقيمون.

إلي: محمود حجاج، مرة ثانية.

بلا مقدمات فيما يبدو، ارتفع مؤشر الحرارة. وقعت عيناه عليـــه صدفة فراعته السخونة. توقف. خاض في أرض زراعيـــة. طـــرق أكثر من بيت. بدا أن أحدا لا يقيم هنا. كـــان الطريـــق موحـــشا. لا سيارات، ولا مارة ولا ميكانيكي. فقط: سماء قريبة، وشمس تـــسطع في وجهه. من مساحات النخيل خمن أنه في نطاق المـــرج، خـــارج القاهرة. يخوض من بيت إلي بيت، يطرق الأبواب المتناثرة بفـــزع ويتساءل: ما الذي جعله يسلك طريقا دائريا كهذا لم يفتتح بعد، إلـــي كلية طب عين شمس، في يوم الامتحان الشفوي لأمـــراض النـــساء والولادة؟

لاح من بين النخيل باب موارب لكوخ منخفض، أســـفل أســـلاك الضغط العالي. فيما بدا أنه لا يوجد أحد بالداخل، وقبل أن ينـــادي، جاءه الصوت واثقا:

ــ لا تجيء إلا عندما نعطل سيارتك؟

تحقق من مصدر الصوت. لا أحد هنا يعرفه، أول مرة يسلك هذا الطريق. تراجع للخارج. تهادى الصوت معاتبا، كأنه لا يوجه كلامه لأحد:

ــ يعني لا تجيء إلا حينما نطلبك.

عرفه:

ــ غير معقول.. شيخ سيد؟

ارتمي في حضنه، يقبله ويعانقه، متعجبا وغير مستوعب بعد لهذه الصدفة. نقره في رأسه وابتسم:

ـ من قال يا ولد إنها صدفة؟

أربعة عشر عاما مرت منذ افترقا لم يره. قال في نفسه: إنه سينتهي من امتحان اليوم وسوف تتكرر زياراته.

ـ هل تظن أنها ستتكرر فعلا؟

ـ وما المانع؟ عرفت مكانك أخيرا.

لم يرد وحدق في سقف الكوخ. أوحشته كلماته الرامزة وصمته المتأمل. سأله عن البلد، وأحواله، وأحوال الإخوان، وقبل أن يوضح أنه علي موعد ضروري، وأنه سيعيد الأيام الخوالي، بحثت عيناه عن ماء فلم يجد. فكر ألا يطيل الكلام ويستأذن، لكنه سأله:

ـ لم تسألني لماذا طلبتك؟

ـ وهل طلبتني؟ ..جئت لأمتحن وسخنت السيارة فنزلت أبحث عن ماء.

لاحظ أنه مريض بالكبد، وأنه يتوه غالبا كأنه يحلم. برزت بطنه من تحت الجلباب، واتخذت ملامحه الشاحبة لون الأرض. تجبره كرشة النفس علي تقسيم الجمل والاستراحة فيما بينها فترات طويلة.

ـ متأكد؟

ـ يعني..

ـ هل تذكر آخر كلمة بيننا.. منذ أربعة عشر عاما؟

ـ طاقية واحدة لا تكفي رأسين.

ـ هي كذلك .. لا تكفي.

ازدحمت شقته ذات الحجرتين بزواجه، ومجيء إبراهيم، وغضب أخته، ثم طلاقها بطفليها، وأبيه وأمه وأخوته. نزح إلي

المرج، عند أهل زوجته. أخذ إجازة طويلة من عمله وسافر إلي العراق. في مقام سيدي عبد القادر الجيلاني سمي مولوده الثاني محمد. أمام مقصورة سيدى أحمد الرفاعي سمى البنت أسماء. لم يعد بنقود. عاد كما ذهب بنفس المسبحة ذات العداد الذي يعد حتى مائة ألف، ونفس الجلباب الذي رآه عليه منذ أربعة عشر عاما.

في عجلة سأله عن أم الأولاد. قال إنها الآن قادمة من الحي. تناطح فيهم ويناطحون فيها، من أجل الكهرباء. تقضي النهار هنا والليل عند أهلها. دخلت وهي تردد بزهق ما يقولونه لها كل يوم:

ــ مخالف يا سيد وعشوائي وتحت أسلاك ضغط عال!

ــ هذا النور .. ألا يكفي؟

ــ نريد كهربا يا سيد .. كهربا.

ــ بعد أن أموت.. ربنا سيفرجها.

ــ يا سيد تجاوزت الأربعين .. فكر مرة فينا.

اقترح لينهي محاورة قد تطول، أن يذهب الشيخ سيد إلي الحي بنفسه. لم يكن خافيا أنها كانت تحكّمُه، ولم يكن خافيا أنه كان متعجلا، فبدا اقتراحه كأنه حُكمٌ، حتى أنه شعر بذلك، فوعده بأنه سيذهب قريبا.

ابتسم ليخفف من حدة حُكمِه:

ــ يعني قريبا إن شاء الله؟

ممتثلا أومأ برأسه، ففرحت زوجته التي حفيت قدماها من السؤال عن الطلب الموقوف في الحي منذ سنوات، لأنه أخيرا سيريهم نفسه، ليعلموا أنه صاحب المكان، الذي يضيئه تماما الآن الضوء القادم من الكوة الخلفية بالكوخ. تاه قليلا وهو مضطجع علي سريره. نفس السرير الذي كان في الشقة ذات الحجرتين، تتحرك

فقط مسبحته كأنه يسبح في سره، أو كأنه في غيبوبة، ينتبه كعادتــه منتفضا كلما يصدر صوت يقطع عليه سكونه قــائلا : الله. كـــي لا يفوته الامتحان، استأذن مواسيا ومشجعا :

ــ شد حيلك يا عم الشيخ..

ــ لم تسألني لماذا طلبتك؟

ربت كتفه بإشفاق وهو يقوم:

ــ سأنتهي من الامتحان وأعود لنتكلم براحتنا.

فيما وضح أنه لم يعد قادرا علي شيء، كــان إبــراهيم ومحمــد ينظران نحوه وهو خارج، وأمهما تحثهما أن يسلما عليــه، وأســماء تركض بالخارج. أربعة عشر عاما لم يره معاينــة إلا الآن. دون أن يستأذن، كان يصعد إلي مقعده العلــوي، أو الــشقة المزدحمــة ذات الحجرتين. تذكر وهو بجوار السيارة أنه طرق أبوابا كثيرة لم يــرد أصحابها، فتساءل في نفسه هل استأذن وهو يدخل الكوخ؟

نسي الماء، وأدار السيارة فدارت. فضل ألا يعود حتى لا يتأخر أكثر. أمام الكلية كان قد تأخر عن الموعد ساعة كاملة. هــل يلغــى الامتحان؟ وجد الدموع تهطل من عينيه حقيقة، وهو يصعد السلالم، و يهرول في الردهات. وهو يعتذر عن التأخير بسبب حالــة وفــاة، قالت سكرتيرة قسم النساء التي رأته مضطربا:

ــ ما الذي جاء بك اليوم يا دكتور.. ألا تعلم أن الامتحان غدا؟

لم تكن صدفة إذن حين رفع عينيه عصر ذلك اليوم البعيد، وسط الحقول فرآه واقفا أمامه ــ كأنه منذ فترة ــ مادًّا يده. سلم بحرارة المعتذر عن الغفلة، فقال بعض الكلمات وكان قد أنهي لتوه القرآن حفظا وتلاوة. وضع يده في يده مرة أخري وأكد: هل قبلت؟ قال: ماذا؟ فقال: العهد؟ هز رأسه، فسأل: وهل تصونه؟ تمتم مجاملا: نعم. ما أعطيته لك غال. قال: شكرا، فابتعد حتى تلاشى في الحقول الواسعة بين العصر والمغرب.

سأل نفسه: ما العهد؟ فقال له في اليوم التالي: حين تراودك الأسئلة الجوفاء عن نفسك، دعها وسلم الأمر إليه. قال في نفسه: وما الذي أدراه؟ فأنشد أول ما لقيه في اليوم التالي:

قلوب العارفين لها عيون   تري مالا يراه الناظرونا

جال بخاطره: لماذا اختارني؟ فقال في نفس اللحظة: " ليس لي من الأمر شيء .. اسأله، يطلبه المجتهدون فلا يصلون، ويطلب هو من يريده".

صار ملتقاهما الحقول، والمصليات المفروشة بقش الأرز بدرجاتها الحجرية الهابطة إلي النهر، بين العصر والمغرب. أوقات هادئة ومترامية وناعمة وموائمة لتأملاته وأسئلته التي يطرحها وينزعج منها أستاذ الدين، عمّن أخرج آدم من الجنة، فيقول: إبليس. ومن الذي وسوس إلي إبليس ــ وكان خيِّرا قبل ذلك ــ بأن يعصي ربه ويوسوس إلي آدم؟ فيضربه أستاذ الدين ويخرجه من الحصة

ويجيبه هو. وحين سأله عن معني الــشطر الثــاني مــن الحــديث الملصق خلف باب حجرته: حسين مني وأنا من حــسين؟ قــال : لا يدخل أحد الحضرة المحمدية إلا عن طريق الحسين أولا، أفهمت؟

كماء البحر، كلما شرب منه يشعر بــالعطش. شــيخ ومريــد لا يفصل بينهما سوى خمس سنوات، إلا أنه أخبره بالكثير عن العشرة الكرام البررة، وخير الناس: الحمزة والعباس، وعن الــسبطين ذوي الإخلاص والصفا، ومن تناسل منهما، وعن أختهما الــسيدة زينــب وعن أمهما السيدة فاطمة الزهراء، وعن جــدتهما الــسيدة خديجــة الكبري، وعن السيدة عائــشة أم المــؤمنين، وأربعــة ملائكــة الله المقربين، وأربعة خلفاء رسول الله الراشدين، وأربعة أئمــة الــدين، وأربع سيدات نساء العالمين، وعن الأربعة الأقطاب وعــن الــسبعة العلماء. وذكر له أهل السلسلة، والباقين من المائة وأربعة وعــشرين ألفا من أهل الطرق الصوفية، وأهل الديوان.

في المصلي، كانا ينهيــان أوراد العــصر: الأســاس، الفــواتح، التحصين الشريف، صلاة بن بشيش، الحــزب الــصغير والحــزب الكبير، ثم يتركه لأوراده الأخرى ويقرأ هو كتب الفقــه والحــديث والسيرة والتوحيد. لا يخرجهما سوى المغرب المتناهي من المــآذن البعيدة. قال: ظمآن، فنزع الكتب من يده وقال:

ــ لن يرويك سوى علم موهوب من لدن علام الغيوب.

ــ لا أفهم.

ــ من تشرَّع ولم يتحقق فقد تزندق، ومن تحقق ولم يتشرَّع فقــد تفسَّق.

لم يفهم، فأخذه من يده:

ــ آن الأوان أن تسلك.. الرحمن فاسأل به خبيرا.

أعطاه الحزب السيفى وحزب البحر، والصلاة المحمدية، وقـال إن الخلوة لم تعد شرطا، والأوراد تقرأ في أي مكان، الـذكر طـلاء القلب وجلاؤه، هو أسهل الطـرق التـي تفـضي إلـي المكاشـفة والمشاهدة والمسامرة والمحادثة، وما المكابدة إلا مطية للتنقـل فـي المقامات والأحوال والمعارف، وما الـسكينة والخلـوة والجلـوة إلا إسراء الروح من عالم الشهادة إلي عالم الغيـب، ومعـراج التلقـي والتداني والتدلي.

كأنما كان يجذبه إلي عالم بعيد، ساحر ومبهج ومريح، لم ينـدمج مع أحد غيره، ولم يسأل عنه سوى مرة واحدة: عـم الـشيخ سـيد موجود؟ فخرج أعمامه وسألوا: "ومن يكون عمك الـشيخ؟" فقـال: "عمي الشيخ سيد عبد العال" فضحكوا جميعا، ونادوا فـي صـوت واحد: " واد ياسيد .. .. يا شيخ سيد.. يا عـم الـشيخ سـيد.. يـا مولانا.. ضيف" كأنما كانت عيناه اللامعتان تعتـذران وهـو يفـتح الباب، ويتلو: "إن الذين ينادونك مـن وراء الحجـرات أكثـرهم لا يعقلون" ثم أعطاه حزب النصر، بعدها لم ير منه ــ وقتمـا يجـيء بخاطره ــ سوى أن يطل من شباكه قبل أن ينـادي بثانيـة واحـدة قائلا: "اصعد"، حتى بعد أن تسلم عمله فـي الـضرائب العقاريـة، وأجبر أعمامه أباه علي بيع نصيبه في بيت العائلة، والإقامة بالأسرة في شقة من حجرتين، كان يزوره بها، وكانت تتسع لـه ولزوجتـه وأبيه وأمه وأخوته وأخته المطلقة وابنيها، قبل أن يـضغط الجـرس بثانية واحدة، كان الباب يُفتح: "ادخل!"

من الغرب إلي الشمال انحنى فرع دمياط فجأة، فـصنع سـاحلا عريضا من الأرض الخصبة، يفصل المجرى الحقيقي عن الطريـق المرتفع، وبدت من فوقه لأول وهلة جزيرة أولاد فهمي المزروعـة

بأشجار الموز الضخمة كحوض من عــشب وســط المــاء. كانــت الجزيرة تصير إلي اتساع كلما هبط الدرجات الحجرية من الطريــق إلي الساحل، ويصير الموز أكثر ارتفاعا وخضرة، حتــى يحجــب القرى التي في الجانب الآخر تماما. وما إن يجتاز ســاحل الطمــي المزروع بالذرة ونباتات الزينة ويصل إلي المجرى الحقيقــي، فــإن الموز الذي يكون قد حجب تماما شمس الغروب، يبدو قريبــا جــدا، حتى إنه لا يصدق أن هذا المجرى الذي يفصله عــن المــوز يبلــغ اتساعه مائة وتسع وخمسين ذراعا، إلا بعد أن ينظر خلفــه فيــرى الساحل ثم الطريق المرتفع بمائة وثلاث وأربعين درجــة حجريــة . يتعجب وهو يهبط خمس درجات حجرية أخرى حتى يصل إلي شفا الماء، حيث أقام مصلاه المواجه تماما لجزيرة تبلــغ مــائتى فــدان مزروعة بالموز. كان يتأمل بهمة فترات طويلة، منتظرا أن يــتلألأ النهر بالألوان، وينفتح الأفق، فيحدث إسراء الأســرار لا الأســوار ومعراج الأرواح لا الأشباح، فتحدث الرؤية القلبية لا العينية. ينتظر بوجد محدقا في الماء، حيث لا وجود لبشر ولا شعور بوقت، حتــى يقوم حزينا لا يعرف ما الذي يمنع سفر القلــب وســفر الــروح. لا يحس بالبرودة والخوف إلا وهو يرتقي درجات السلم الحجري، حين يكون عليه أن يأخذ الطريق شمالا إلي المدينــة، وســط وشوشــات عيدان الذرة المخيفة علي جانبي الطريق، تلمع أوراقها كنصال فــي ضوء القمر، ويكون وحده كــآت مــن الغيــب، لا يــدرك الوقــت والاتجاه.

حين انبثق من وسط الطريق جنديان، أحــدهما ملــثم والآخــر مطموس الملامح، كانا يسيران بظهريهما أمامه صامتين، لا يبتعدان ولا يقتربان. وحين لاحت المدينة من بعيد وترامى ضوؤها الــشحيح

علي تراب الطريق المصاحب للنهر، تلاشيا في صمت. فـــي اليـــوم التالي حين قابله سأله:

ــ لم خفت ممن أرسلتهما ليوصلاك أمس؟

لم يرد، وهز رأسه متعجبا.

قطعة صغيرة مثلثة. لا تصلح لشيء، كفضلة الثوب. بقيت من حقل كبير. غضب عليها جميع المشترين، لوقوعها أسفل أسلاك الضغط العالي، واحتمال ضياعها ضمن طريق دائري تحت الإنشاء، ولصعوبة المباني فيها بشتى الطرق. قطعة مثلثة ظل الوصول إليها من داخل القاهرة مرهقا، مرورا بعزبة النخل ثم قرى وعزب أخرى وطرق ملتوية علي ترع تشق المرج أو تلتف حولها. وكان هو الذي يتكلم عن ثمنها الزهيد لأقاربه، لا يعرف كيف يصف طريقة الوصول إليها، حتى انتصبت فجأة أمام الطريق الدائري كوخا مثلثا.

كان يقود مسرعا حتى يلتقي به، وقد حز في نفسه أن تكون آخر خطاياه أنه لم ينتبه لماذا طلبه، وأن استقباله لم يكن موجها علي نحو ما هذا الصباح للتلقي. خشي أن يكون في الأعمال وهو في الأحوال، في الظاهر يجري وهو بالباطن يسري، يجاهد وهو يشاهد. كان علي الطريق يبحث بين البنايات العشوائية المتناثرة في الحقول الجانبية عن كوخه المثلث.

حين صرخ وأمسك رأسه وسقط، كان يحدق في النهر كأنه يصطاد. اتسع سطح الماء الأخضر بحجم مجال عينيه اللتين لم تطرفا، وتوارت تدريجيا جزيرة الموز وتلاشى تماما صوت رجلين يقتتلان علي قارب، وبزغ ذلك العالم الناصع الملون. انبعث الضوء من كل مكان، وتناهت أصوات بين تسابيح وزقزقة من اتجاهات غير محددة، كأنما تنبعث من داخله، ولاحت فتاة من ضوء. قال: ما اسمك؟ فلم ترد، قال: يا ليلي، فمدت ذراعها. أسلم يده لها دون أن

يدري. تبعها أسفل أغصان كثيفة تتعانق فـــي رقـــة ولا تــصطدم، تتدرج أوراقها بين الأخضر والأصفر والأحمـــر والـــوردي، حـــين يتسرب من خلالها ضوء أقرب لضوء الشمس بلا حـــرارة، وترتـــع بينها أسماك طائرة كأنها في حوض زجاجي كبير. ليس نهارا وليس ليلا، وهو يغوص في حَوَر عينين واسعتين، وعنق حوله عقـــد مـــن لؤلؤ، وجسد ينبعث النور منه، تتسدل عليه غلالات شـــفيفة. انفـــتح المدى أمامه وحوله، فأسلم كفه في راحتها وهي ترفل أمامه كقطعـــة من بللور. لم يشعر بقدميه تلمسان طريقا، كأنما يسبح. تجاوزت بـــه ثلاثة وثلاثين حجابا، وبدا كأنه رأى سيد عبد العال وسط مـــن مـــر بهم. توقف وناداه. كان منهمكا كعادته. يتمتم بدعوات مبهمـــة، دون أن تتحرك شفتاه. يحدق بغبطة لموكبه. وحين انتوى من فرحتـــه أن يسلم عليه ويقبله، انفلتت يده منها فارتدت راحتهـــا إلـــي صـــدرها، فانفرط العقد وأصابته نقرة بِنْصَرِهِ في رأسه؛ فصرخ وأمسك رأســـه وسقط:

ــ آه يا رأسي!

ارتمي علي حبات عقدها الذي انفرط، فانطفأ كـــل شـــيء كمـــا ينطفئ مصباح، وفقد إلي الأبد فتاة الضوء. أفاق مجردا من غلالاته السندسية، يحدق في أرض الحجرة عن حبات عقد انفرط لتوه. كان رأسه مربوطا ما يزال من أثر نقرته، والحجرة مزدحمـــة بـــإخوان يهنئونه علي السلامة، وصيادين يقبلان رأسه ويقسمان بالله أنهما لـــم يمساه، حين تعاركا علي القارب بعيدا عنه. همس شيخه في أذنـــه: إنها كانت نقرة غيظ. لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك وهـــو يـــراه مشرفا علي الوصول ثم يفكر فيما عداه، حتى لو كان شـــيخه. ثـــم دمعت عيناه واقترح أن يقيم حضرة.

عاونه المنشدون بصوتهم المنغم في ضـبط الإيقـاع، أللهِ.. أللهِ. مُطت اللام مطا شديدا لتخرج الهاء مـع نهايـة الالتفـات لليمـين، فتهادت الأجساد في صفي البُسْط بطيئة، ثم لـم تلبـث أن التأمـت، فتمايل كل صف كتلة واحدة، في اتجاه معـاكس للـصف المقابـل، ليصبح اتجاه الصفين ــ فيما لو انفردا ــ واحدا. انـضبط الإيقـاع وتسارع: أللهِ، أللهِ، فيما لم يزل الذاكرون في الظلمة الخافتة بعيـونهم المفتوحة بكامل وعيهم. تسارع أكثر. نقراته المحفـزة والمتـسارعة أدغمت اللامين في واحدة، ثم أسرعت فلم يعد بالإمكان سوى نطـق الألف والهاء، كأنهم يتأوهون، ينحبس هواء الصدور خلـف لـسان المزمار، ثم يخرج مكتوما دفعة واحدة. يغدو الذكر لهاثا وصـعودا إلي الذرى فتتوارى نقراته في الخلفية، تغمض العيون، ينبثق الضوء الداخلي، كعود ثقاب يشتعل، يضيء أفقا أوسع بكثيـر مـن مكـان الحضرة، تتحرر الأرواح من الأجساد، تتبع الـضوء، تـسبح فـي فضاء وملكوت آخر، وتخف الأجساد، كل حسب مقامـه، فيغيبـون عن الحضرة الأرضية، يتحررون من سجن الجسد، ويتناهى الـذكر إليهم من بعيد كأنه لأناس خارج هذا الكون، حتى تجذبهم يده بخيوط رفيعة إلي الحضرة الأرضية، ليعود وعيهم تدريجيا بالمكان بإيقاعـه الهادئ. أنشد قصيدته الفاصلة قبل الطبقة الثانية من الحضرة، انتشوا بالسماع، وتمايلت أجسادهم في شجن القصائد النورانيـة، بعـضهم يدمع، وبعضهم ينهنه والآخر يعوي كمن قرصه ثعبان.

قلوب العارفين لها عيون   ترى ما لا يراه الناظرونا

قصيدته المفضلة قبل أن تبدأ أمتع الطبقات، الثالثة، حيث تتحرر فيها ــ تحديدا ــ الأرواح من أبدانها التي لم تكن قد استعادت ثقلهـا

بعد، وتكون الأرواح التي جالت في العلا متحفزة للانطــلاق مــرة أخري في زمن أقل.

بدأ الإيقاع سريعا ومتلاحقا، الأجساد ســاخنة بفعــل الطبقتــين الفائتتين، فبلغ الذرى من بلغ بسرعة، وتجــاوزت الأرواح الحجــب وتخطت سماوات، واجتازت مقامات وأحوالا، فيمــا لاح ــ بعيــدا وحميما ــ إيقاعه السريع، المتلاحق، كخلفية:

ــ أنا العرش. أنا الكرسي. أنا القلم..

ظل يترجم، كأنه يزعق، ولم يكن إيقاعه ــ وهو يركز في وجهه بنظراته ــ غير أصوات بعيدة غير مفهومة، فيمــا كــان الــضوء اللامنتهى مبهرا بامتداد أفق بصره. أجلسه بسرعة، وبــدا مــتعجلا يتلو الفواتح. كان في نشوته يتمايل ما يزال، غير منتبه للقلــق فــي عيون الإخوان، أو للدموع في عينيه وهو يختتم ويسلم عليه هامسا:

ــ أمن اللوح المحفوظ كنت تقرأ؟

هز رأسه، فقال دامعا، وهو يحتضنه طويلا:

ــ طاقية واحدة إذن لا تسع رأسين.

ولم يره بعد ذلك.

عند الكوخ المثلث، كانت زوجته تشير في هلع من بعيد فتوقــف، قالت إنه متعب جدا وإنه لم يعد يعرفها، وحين دخلت عليه بــالعلاج بكي وصرخ كطفل:

ــ لماذا تدخلين؟ ألا تعرفين أن معي ضيوفا؟

سألها عمن معه، فارتعدت شفتاها وقالت: لا أحد. بــلا اســتئذان دخل عليه كعادته، فوجده يحدق في جوانب الكوخ كأنه يسلم بعجلــة علي ضيوف جالسين ويقبل يده الفارغة إلا من المسبحة: سيدي عبد القادر، سيدي أحمد، سيدي إبراهيم.

نادى عليه:

ـــ يا عم الشيخ سيد.

كان قد انتهى، فانفرد جسمه وصار بمواجهة الباب المفتوح تماما حين قال:

ـــ لبيك.

وفاضت روحه قبل أن يعرف لماذا طلبه.

ورقة بيضاء إلا من سطر واحد وتوقيع، وضعها علـــي مكتـــب مدير المستشفي واستدار. لم ينتظر موافقتــــه، ولا انتبــه لتلميحـــات الأطباء الجالسين في مكتبه بأنه يفعل هذه الأيام أشياء بلا حـــسبان، ولا أجابهم حين سألوه عن امتحان الأمس، ولا التفت ليقول للمـــدير إن عنده الآن عادل الجندي حين زعق: ونوبتجية الاثنين ده؟

لم يكن يخالجه هذه اللحظة سوي شعور مبهم، وشوق قديم يجرفه بقوة إلي البعيد، فيهبط الدرجات الحجريـــة. يغتـــسل بمـــاء النهـــر، ويصعد ليفترش قش الأرز ويتمدد، تحت سماء واسعة. ليس أمامـــه سوى الماء وجزيرة الموز، ولا أصوات ســوى لطيـــور وحفيـــف أشجار وخرير ماء. ليكتشف كم كان كحمار الرحى الذي كشف عن عينيه الغطاء، فراعه أنه ظل يخوض دون أن يـــدري طـــوال هـــذا الوقت حول العيادة والمستشفي والبيت، في دوائر من رمال ناعمـــة ومتحركة.

فتح عينيه كأنما بعد نوم كسول وطويل. تساءل: هل تزوج فعـــلا هذه السيدة التي تنام بجواره، ومتى أنجب هذه البنت وهذين الولدين، وركب هذه السيارة الجديدة التي أوشكت أن تحترق أول أمس بعـــد أن باع القديمة، هل حدث كل هذا فعلا، أم أن الأمر كله محض حلم سينتهي بمجرد أن يفتح عينيه؟ تأكد أن كل ما مر قد حدث بالفعـــل حين فاجأته في الأدراج قسيمة زواج وشهادات ميلاد أطفال نـــائمين وعقود بيت وأوراق سيارة واقفـــة بالأســـفل. فـــي الطريـــق إلـــي المستشفى، ود لو يجري ويصرخ بأن ما حدث لم يكن هـــو الـــذي

يريده، غير أنه كان كطاعن في السن، ثقيل الخطى، كلما رفع قدميه غاصتا أكثر.

كأنما يفيق من نوم طويل أو مخدر عام، وضع الورقة أمام المدير وخرج متحررا من ثقله كطائر يقلع عن الأرض ويحلق. يعاين الأشياء فتنطبع في ذاكرته بيضاء ونظيفة كما رآها أول مرة: شارع الشبان، المركز القديم، النفق، الكورنيش بأشجار البنسيانا الكثيفة والبنك الأهلي لم يفتح أبوابه بعد. ثمة موسيقي تتبعه ونغم غامض، وإيقاع أشبه بركض الأحصنة أمام الحناطير في الصباح. قبل أن ينحرف إلي شارع المديرية الذي يفصل مجلس المدينة عن محلج العطار، تعالى الإيقاع الذي بدا أنه لدُفّ، وتجاوزه الدرويش المداح علي سطح الكارو، وانحرف إلي نفس الشارع. لم يكن يتوقع في التفاتته البسيطة للخلف قبل أن ينحرف يسارا ليعبر الطريق المقابل — كما يفعل حين ينظر في مرآة سيارته — أن يرى المداح الذي دأب علي رؤيته يذرع شوارع المدينة من جنوبها إلي شمالها لعشرين عاما بالكارو بمثل هذا الوضوح. ولم يكن قد تبين — إلا بعدما تلاشت ملامحه في شارع المديرية — أنه غيَّر اتجاهه اليوم. كان المداح يفرد ذراعيه ويتطوح في وَجْدٍ بجلبابه البني علي قميص أبيض ولاسة خضراء وشال، دون أن يتجهً بنظره إلي المارة.

على السلم المتسع راعه وشيش الصمت، فتوقف عن الصعود. لا أنات لمرضي ولا صخب مرافقين يطالعه علي بسطات السلم أو أمام الأبواب، ولا دواب مربوطة بحديد شبابيك الدور الأرضي. لم ينتبه حتى لنصبة نجاح بائعة الطعمية التي وقفت فارغة اليوم بجوار البوابة. كأنها غير موجودة. صباح مختلف. فكر أن ينزل ويتأكد من واجهة العمارة. لكنه شغفا بالخفة التي اعترته، واصل الصعود،

مستعيدا لحن الدرويش الذي يغني لنفسه، دون أن يرد بذهنه مـــا إذا كانت الورقة البيضاء إلا من سطر واحد علي مكتب المدير إجـــازة أو استقالة.

عند باب العيادة الذي كان مغلقا لم يجد المفاتيح. لأول مرة يـــري الباب مغلقا. قبل أن يقرر النزول، دفعه فانفتح. هـــل نـــسيته نـــازك مفتوحا من أمس؟ ما لزوم المفاتيح إذن؟ ابتسم في نفسه وبدا خفيفـــا كمن حط عن كتفيه حملا كبيرا حين تصور أن تكون المفاتيح بهـــذا الثقل. أسند ظهره علي الكرسي وفرد ذراعيه علي امتدادهما وتنفس بعمق ومتعة كما لم يتنفس من قبل. كان يعلم أنه جاء إلي هنا ليتزود بشيء قبل أن يواصل رحلته القديمة إلي انحناءة النهر، أمام جزيـــرة فهمي الممتلئة بالموز، أو جزيـــرة علمـــا الممتلئـــة بأشـــجار الأرو والفاكهة.

كصورة وضعت توا في إطار، أطلت من مستطيل الباب امـــرأة. لم يشعر بخطواتها علي السلم، ولا لهاثها. بمـــلاءة ســـمراء ووجـــه أبيض وعينين محدقتين. كأنما تنتظر منذ وقت بعيد. لملـــم ذراعيـــه المفرودتين تلقائيا، واعتدل خلف مكتبه، وتوارت مشاعر الخفة:

ــ أليس اليوم الإثنين؟

ــ قلت لعلك تكون موجودا.

تعاقبت علي المستشفى العام خمس إدارات مختلفة، توافد خلالها أطباء وتقاعد أطباء ونقل آخرون، وظلـــت نوبتجياتـــه ثابتـــة أيـــام الإثنين. فاستمرت عيادته من ثم ــ دون أن يقصد ــ كأيام أندراوز، مغلقة أيام الإثنين. لم يأت اليوم ليعمل، لكن الأمور بدت أنها تـــسير علي غير ما يرغب. استندت علي البـــاب، فبـــدا الفـــستان الجينـــز

والبلوزة البيضاء متسعين عليها، ونضحت من وجهها في آن ملامح الطفولة والنضج. لم تغادر وجهه النظرة المتسائلة:

ــ لكن اليوم هو الإثنين.

اختفت استدارة بطنها، فتلاشت ملامح الألم من وجهها، وحلت محلها ملامح الطفولة المرتبكة مرة أخرى:

ــ خالتي نعمات قالت إنك هنا.

ــ وأين هي نعمات؟

أشارت إلي أسفل، فاندفع متشككا نحو الشرفة المغلقة منذ زمن، أزاح الأتربة. يعرف أن نعمات لم تغادر مكانها بجوار سور المستشفي منذ زمن طويل. البندر كما هو، عمر أفندي، الكورنيش، شارع البحر، المسجد القديم، مجلس المدينة، مركز الإسعاف الرئيسي، محلات الكنافة والبقالة وقطع غيار البوتاجاز، عمر بن الخطاب، محالج العطار، والسيارات والحناطير.

وجدها. كانت تفصل بينها وبين أرجل المزدحمين والفضوليين من المارة بقطع من الطوب والحجارة، وكما اعتادت لأكثر من عشرين عاما، كانت تمارس حياتها الكاملة داخل هذه الحدود. تأكل وتنام وتستحم في العراء. لا تعنيها الدهشة في عيون الفضوليين، ولا إبلاغ إدارات المستشفي الجديدة لشرطة النجدة التي تأخذها فتغيب فترة داخل المصحة النفسية المقابلة ثم تعود فجأة إلي نفس المكان بيديها أكياس الحمص وقطع الحلوى البيضاء كالجبن كأنها لم تكن بمصحة نفسية، تستحدث أشياءها التي بعثرها العساكر، فتجمع في دأب قطع الشراميط وفرد الأحذية إلي الأطباق القديمة، وتشعل النار في أوراق وكراتين وأكياس بلاستيك دون أن تعني بأحد أو تكلم أحدا. صباح مختلف. نفس الجلسة المتقوقعة، ونفس الحدود

الوهمية علي رصيف المستشفي الأميري، نقلتها نعمات إذن إلي هنا دون أن يأخذ باله.

أربكته الدموع التي ترقرقت في صمت، فخالجه شعور بالـــذنب وهو يغلق الشرفة، لأنه ارتاب في قولها دون مبرر. لـــم يميـــز إن كانت الدموع لتقلص البطن، أم لفتور استقباله لها. أصبح من غيـــر الملائم ــ وهو يسعى نحو رحلة مبهمة ــ أن يتحمل هـــذا الـــوزر، فقرر أن يفحصها، ربما وجد الرأس موشكة علي الخـــروج، ولـــن يكون عليه حينئذ سوى أن يجذب المولود، ليحل الامتنان محل تلـــك الدموع، فتقول: مش عارفة كنت هاعمل إيه من غيـــرك؟ ويـــشعر لحظتها بالأهمية الحقيقية لوجوده في هذه اللحظة بالـــذات، وربمـــا ظلت سعادته حتى يؤدى أشياء بسيطة بعد انتهـــاء الـــولادة: ربـــط السرة، تلبيس المولود، المساعدة في إنزالها عن ترابيزة الولادة إلـــي السرير، ومتابعته لعلامات الراحة تغمر الوجه بعد إجهـــاد الـــولادة، وطاعة الشعر المبلول بالعرق لتمشيط الأصابع التلقـــائي وانـــسداله للخلف.

تظل هذه الأشياء الصغيرة عالقة برأسه طويلا، أكثر من لحظات الولادة نفسها، إذ يغدو كل ما في الكون ــ في هذه اللحظات النادرة ــ طيعا وراضيا ورقيقا، وتطل تلقائيا أمارات التقدير مـــن العيـــون وتختلج في نبرات الكلام، وقد تمتد لسنوات دون أن تفتر كلما دخـــل البوابة وصعد هذا السلم إلي عيادته، إذ ترد نجاح بائعـــة الطعميـــة علي إيماءته بحماس، كأن ما فعله لها كان بالأمس، وهو ينزلها عن سرير الولادة، انقضت علي كفيه، وتهدج صـــوتها وهـــي تقبلهمـــا، وكلما حاول نزع كفيه، قالت بهوس وهي تبكي:

ــ لن يكفيني حتى لو بست رجلك.

لم تكن تتوقع أن تعيش لترى هيثم معلقا من ساقيه في الهــواء، وقد صرخ صرختة الأولي وحبله السري مدلى بالجفت. كانت تعاني في حمله من تسمم بالغدة الدرقية وهبوط بالقلب وتــورم بالــساقين وكرشة النفس، حتى أنها حلّفَت زوجها وعمرو علي المصحف فيما لو ماتت ألا يتعرضا له، لأنها تشعر منذ بداية هذا الحمــل ــ الــذي جاء متأخرا عن عمرو ثمانية عشر عاما ــ أنها ميتة بالفعل. كمــن نجا بأعجوبة من حكم بالإعدام، كان يشعر بصدى هذه النجــاة فــي حماسها وهي ترد السلام عليه كلما دخل من بوابة أندراوز.

نزع قفاز الفحص ممتعضا وعاد إلي مكتبه حــين وجــد عنــق الرحم مغلقا ورأس الجنين الآتى عالية. تبين أنها ما زالت في أولــى مراحل الولادة. تيقن الآن أنها كانت دموع الخوف وفتور الاســتقبال تلك التي في عينيها، فقد مسحتها واستراحت ملامحها تمامــا حتــى قبل أن تسأله عن نتيجة الفحص، وبدت مثل طفل كــف للتــوِّ عــن البكاء وسيقبل عما قليل علي النوم.

تنقبض أمعاؤه وتنتابه فجأة الرغبة في دخول الحمام، وترِد فــي خاطره كل الهواجس والاحتمالات، دون أن يلحظ أحد من الحضور قلقه، أو تغيب عن ملامحه الثقة التي يتحلى بهــا فــي مثــل هــذه المواقف، وسيكون من المتعذر أن يتبين أحد ــ من خلال ما يتفــوه به من عبارات وسطية لا تحمل مدلولا محددا ــ أنه في هذه اللحظة يتغاضى عن نهلة وعزيزة وأم هاشم اللاتي حضرن أمامه، متكئــات علي سرير الولادة، يخايلنه، ويتعــبن أعــصابه، يذكرنــه بأســوأ المضاعفات التي تأتي من حيث لا يتوقع حتى في ولادة عادية جدا.

انقبضت أمعاؤه ولم يسترح حتى في الحمام. كبت هواجسه التي تجرفه بعيدا، نحو مراكز الشرطة غالبا، وتحقيقات النيابة ثم تلويــث

السمعة، كي لا تطفو علي سطحه الهادئ ووجهه المطمئن، متأهبا بذات السماحة والرحابة للإجابة عن أسئلة قلقة للحالة أو أحد مرافقيها:

ــ فاضل قد إيه؟

ــ ربنا يسهل.

وإن تكرر السؤال ملحا ومستوضحا:

ــ يعني فاضل كتير؟

يبتسم لعبثية أسئلتهم المتوالية، فلا يمكن لعاقل أن يرد عليها سوي هذا الرد الغامض الواضح، إذ لا يمكنهم الاعتراض عليه:

ــ شوية.. ما تقلقوش.

آليات لغوية وحوارية استحدثها، ربما تقيه في مثل هذه المآزق من المشيب المبكر والشيخوخة، بعد أن جرب التحديد بدقة. نصف ساعة. ربع ساعة. تتنقل النظرات بين الساعات في الرسوغ ونقاط المحلول البطيئة، ثم ترتد إليه ــ قبلما يمر الوقت الذي حدده دون أن تلد ــ متسائلة ومتهمة ومتشككة، تزيد انفعاله وقلقه وتضيف إلي كاهله عبء تأخر الولادة. آليات لغوية استحدثها لمواجهة أسئلة عبثية ومتكررة، فيما تظل أمعاؤه كما هي خلف هدوئه الظاهري متقلصة. هل كان لابد أن يمر وقت طويل كي يعتاد هذا الهدوء الظاهري، حتى أمام النار التي فاجأته من عيون البوتاجاز الذي صار كتلة من نار، فيتراجع قليلا للخلف دون أن يصرخ رغم لسع النار المفاجئ لوجهه ويديه، ويتوجه إلي الأنبوبة فيغلق محبسها بسرعة، هكذا دون أن تشعر الحالة الجالسة في حجرة المكتب المقابلة، رغم أنه لم يكن قريبا من الموت مثلما كان وهو يعد الشاي في هذه اللحظة.

استحالت العيادة إلي زنزانة تضمهما، هو عند باب الحمام وهي جالسة هناك. صار مجرد وجودها في العيادة عبئا ثقيلا، يحول دون استجماعه لهذه الحالة الغامضة التي يحياها، أو القبض علي ملامحها تحديدا. برفق كان يحاول إقناعها حتى لا تشعر أنه يدفعها إلي مغادرة العيادة:

ـ تروحين الآن ثم تجيئين حين يزيد الطلق؟

ـ أليس هذا طلقا؟

ـ طلق.. لكن الوقت قد يطول.. ثم إنك جئت مبكرة.

ـ مبكرة جدا؟؟

ـ لا.. قليلا.

ـ ألا يمكن أن يزيد الطلق وألد قبل ذلك؟

ـ ممكن طبعا.

ـ طيب.. هل أذهب؟

أراد أن يحاصرها فحاصرته. لو قال نعم سيعاوده الشعور بالذنب. فضل ألاَّ يرد. يختار المريض طبيبه، وليس العكس. سكت لأن المريض هو الفاعل دائما والطبيب هو الطرف السلبي. سكت لأنه لمح من استفساراتها أنها اختارته، ولن يكون بوسعه سوى أن يدعها تستريح في حجرة الولادة، ولا يلح عليها بالذهاب حتى ولو استحالت العيادة إلي زنزانة حقيقية. كان يريد أن تذهب وحدها كما جاءت وحدها، لكنها حاصرته، حتى أصبح الجواب بلا يساوي الجواب بنعم.

استحالت العيادة إلي زنزانة حقيقية، واعتملت في نفسه هــواجس أخري يعرفها حول ما قد يواجهه من طوارئ وكيف يتعامل معهــا. كي يبعدها بسط الأمر لنفسه، فالمكان ليس في النهايــة أكثــر مــن غرفة ولادة، يتوافر بها المعتاد مــن آلات وأدويــة ضــرورية، ولا ينبغي أن تنتابه هذه الهواجس مع دخول كل حالة لعيادته، لمجرد أن إحداهن قد تشذ عن القاعدة فتتطلب حاجات معينــة، أو تــسلك فــي ولادتها سلوكا غير متوقع. وكما قــد يحتــاج أثنــاء ولادة طبيعيــة وبشكل مباغت لشيء نادر جدا، لا يسعفه الوقت حتى لمجرد تذكره أو كتابته، ولا من أين يمكن الإتيان به، يمكن ألاَّ يحتاج لهذا الــشيء النادر لسنوات فيما لو وفره، وربما طوال عمــره المهنــي. تبقــى العوامل الأخرى كانقطاع الكهرباء، أو تعطــل جهــاز الــشفط، أو انقطاع حرارة التليفون وقتما يطلب طبيب التخدير، والمطر المفاجئ حين يعوق نقل الحالة فيما لو حدثت مضاعفات شديدة، ومــداخلات ومقاطعات رواد العيادة الآخرين وهي ــ علي ندرتها ــ يمكن تقبلها كمعوقات خارجية. أما توقيت الولادات، وخوفــه مــن مــضاعفات الفجر، حين يقرر الانتقال للمستشفي، لنوم كاتب الاستقبال وعامــل المصعد وممرضات العمليات والأطباء النوبتجيين، وبنك الدم، فقــد اعتاد علي ألاَّ يزول قلقه إلا بعد أن تلد الحالة، وتخرج علي قدميها. وقد جلس لذلك خلف مكتبه، وأراح رأسه للخلف وفرد ذراعيه علي امتدادهما، وقرر نهائيا الشروع في مهمته.

ــ ؟.. .. ..؟

ـ أروي علي محمود.

ــ من أين يا أروي؟

طار النوم من عيون الطفلة التي كانت ستخلد إليه عما قليل، وابتسمت فبانت غمازتا وجهها لأول مرة:

ـ ألا يبدو من ملامحي؟

ثمة عذوبة وصفاء، وملامح بريئة تبعث على الارتياح جعلتها تبدو كأميرة خرجت توا من الحواديت، فاختلطت الأمور عليه لأول مرة، وبدا أنه ليس في حالة تسمح بالتخمين الصحيح:

ـ لست غريبة عموما..

أومأت متوسلة أن يكمل، لكنه قال:

ـ عاشت الأسامي يا أروي.

لم تعد تحبها، هذه العبارة التي يبتر بعدها الحديث رغم ما كان يعد به. تميمة للخلود في ظاهرها، وتكريس للغياب والنسيان في الباطن. تسمعها فتنحدر وحدها الدموع بلا صوت، وتعلم أنها سترتطم بعدها بجدار مصمت.

في الشارع التجاري، يتحول شراؤها لأي شيء إلي صداقة. لا تشتري إلا من عجوز، مقيم غير عابر. تتمادى فلا تقدم نفسها. تنتظر تخمينه التلقائي. أنا شفتك قبل كده. يهيأ لي أنني أعرفك. تومئ مشجعة ومبتسمة. اللهم صل علي سيدنا محمد. لكن أين؟ من عائلة فلان؟ يا ربي! لا.. إنها عائلة علان في بلد كذا. تسجل في ذهنها أسماء عائلات وأسماء بلاد. تتقصى بطرقها الخاصة والبدائية والدءوبة، لكنها ترتطم بجدار مصمت. ينهكها البحث، لكنها لا تكف حتى تعيد المدينة الواسعة إلي سيرتها الأولي. مجرد قرية صغيرة وضيقة بشكل يتمكن معه أي بائع عجوز أن يتذكر عائلاتها كاملة، وقتما كان هذا الشارع التجاري مجرد سويقة تربط داير الناحية من النيل بشريط القطار، حتى قبل أن يتحول في بداية القرن إلي شارع

مختص بالأقمشة والأحذية والخردوات والأدوات المنزلية، وتتـــزاح سويقة الطيور واللحوم والخضار إلي شارع جانبي يتفرع منه، ثـــم يلتقي به مرة أخري عند مثلث الصاغة والمنجدين وتجـــار القطـــن. تراها أروى كقرية متعبة، تريح رأسها من الجنـــوب علـــي الريـــاح التوفيقي بكوبريين متلاصقين أحدهما للمشاة والآخر للقطـــار، مـــات عليه علي محمود. يمر فرع دمياط بجانبها الأيسر، ومـــن جانبهـــا الأيمن تمتد الحقول خلف السجن العمـــومي ومحـــالج بنـــك مـــصر ومعاصر الزيوت والصابون ومبخرة البرتقال. ثـــم ينثنـــي جـــسدها المتعب جهة الغرب ممددا ســـاقيه ــ كـــي لا يـــسقط ــ كجـــسرين متباعدين علي النيل، أيمنهما للسيارات والأيسر للقطار الفرنـــساوي، ذلك الذي يشق الجسد المتعب طوليا في دقيقة وعـــشرين ثانيـــة، ولا يتوقف بها حتى بعد أن التحمت بها المنشية وعزبة القرود ومنـــشأة عزيز وبدوي وأتريب وكفر الـــسرايا، وصـــارت مركـــزا لاثنـــين وأربعين قرية حولها، ثم عاصمة لمحافظة فيما بعد.

لم يكن في وضع يسمح بالتخمين، لكنه كاد يجزم أنه رآهـــا مـــن قبل، هذا الوجه تحديدا. ونازك التي تدخل في الموضوع بشكل آلي، ولا يهمها سوى الاسم واستلام ثمن الكشف، كان بإمكانها لو كانـــت موجودة أن تزيل له هذا الغموض واللبس. لم يكن في حالـــة تـــسمح بالتخمين، لأنه في اليوم الثالث فقط، عندما هـــمَّ بـــإغلاق حقيبتـــه، ارتاب في أنه يفحص نفس المريض. لم تكن به أي علامات مرضية تذكر. أحس قبل أن ينطق التشخيص بأن الكلام الذي ســـيخرج مـــن فمه سبق أن قاله مرتين. تردد لحظة وحدق في وجوه المحيطين. لم يجد أثرا لأحد رآه من قبل، فقال إن مريضهم سليم وأكمـــل إغـــلاق حقيبته وخرج.

في اليوم الرابع، بعد مسيرة نصف ساعة، تأكد الشك. قال المريض: سأموت، فقال إنه سليم وخرج متأففا. علي طريق النهر سأله مرافقه عن حقيقة مرضه، فهز رأسه وقال: لا شيء. تمتم مرافقه: لكنه سيموت! كرر قوله مرة أخرى: لا شيء به. أشار مرافقه إلي حقل في الساحل زرع بالمكرونة وقال وهو يمصمص شفتيه:

ــ هذا حقله!

فقال لمرافقه: ما اسمك؟

ــ خدامك إمام الفنجري.

ــ يا عم إمام لا تستدعوني مرة أخرى.

في اليوم الخامس، طلبه صبي خجول للكشف علي مريض، فقال أول ما سأل: أين؟ قال الصبي: علي بعد دقيقتين من هنا. فنزل معه من شوارع ضيقة إلي حارات صغيرة يخيل إليه أنها مسدودة، لكنه ما إن يقترب خلف الصبي الذي يجتاز الباب الأخير في الحارة، يجد نفسه في حارة أخرى. كان يلقي السلام علي الجالسين علي الأبواب والمستريحين علي الأعتاب والذين يأكلون، فيما بدا أن مرورهما هكذا لم يكن غريبا، فقد كان الجالسون يردون السلام والمضطجعون يعتدلون. وكأنهم يعرفون المهمة التي سيذهب إليها، وكانوا يرددون كثيرا: ألف سلامة. ربنا يشفي كل مريض. بعد دقيقتين تماما من العيادة، وجد نفسه أمام نفس المريض. تلفت من حوله ليرى إن كان ثمة بيت بخمسة مداخل مختلفة، فلم ير من بين الواقفين حوله أثرا لمن استدعوه في المرات السابقة. وحده كان الصبي الذي يرفع الغطاء عن المريض ويتنقل ببصره بين حقيبته ووجه المريض، ويوشك علي البكاء منتظرا التشخيص. لم يكد يؤكد بنفس الملل وهو

يغلق حقيبته أنه سليم، حتى شهق المريض شـــهقة أخيـــرة تزامنـــت تماما مع إمساك الصبي لحلق الثوب وشقه بصرخة طويلة وملتاعة. لم يحرجه ذلك الحدس الكامن بـــالخطر فـــي الـــصرخة، أو مـــوت المريض غير المتوقع، بقدر ما أحرجه اكتشافه من الثوب المـــشقوق والنهدين الصغيرين أن الذي استدعاه صبية لا صبي. خرج محرجا، يكمل غلق حقيبته في الشارع، لا يـــستطيع التحـــديق فـــي عيـــون المضطجعين والجالسين علي الأبواب ينظرون إليه بتـــسليم، كـــأنهم كانوا يعرفون. انتبه إلي كومة من نوى البلح تنطلق من داخل بيـــت، تفاداها بالكاد لكنه سمع صوتا يقول: ألم أقل إنـــه ســـيموت؟ التفـــت فالتقت عيناه بإمام الفنجري متكئا داخل عتبة بابه وبيده طبق فارغ.

لا يدري حتى هذه اللحظة إن كان قد كشف بالفعل علـــي رجـــل بهذا الشكل، في دار بخمسة مداخل تؤدي إليها خمسة طرق مختلفة، أم أن الأمر مجرد حلم أو حكاية من حكايات أندراوز. ربمـــا نـــسي الموضوع تماما، لكنه لم ينس ذلك الإحساس بالحرج وهو عائد إلـــي العيادة، ولا مشهد الصبية الملتاعة وهي تشق الثوب، والتي يوشـــك أن يجزم أن ملامحها تنطبق علي الجالسة أمامه كطفل طـــار النـــوم عن عينيه:

ـــ هل جئت هذه العيادة من قبل؟

هزت رأسها.

كانت أروى تشعر منذ اتكأت بيديها علي إطار البـــاب قبـــل أن تدخل، كأنها جاءت هنا، وأن الحجرة التي في مواجهة الصالة وفـــي مواجهة الداخل من الباب هي حجرة الكشف، ولابد أن يكـــون هنـــا باب يفصل غرفة الولادة عنها، وتلك الغرفة لابد أنها تطـــل علـــي خلاء جانبي بشباك فقط، غير بابها الذي من الصالة، ولغرفة المكتب

شرفة تطل علي عمر أفندي والبندر والشارع، وهذا المنور الكبيـــر الذي تفتح عليه الصالة بشباك زجاجي خشب فقط تطل عليه حجـــرة المطبخ والحمام. كأنها دخلت هنا من قبل، فلماذا يقول لهـــا عاشـــت الأسامي وينقطع الحديث هكذا؟ وهل كان بوسع أندراوز أن يجيبهـــا عن شيء مما يدور في رأسها لو سألته قبل ثلاثة وعـــشرين عامـــا، حيث كان الأمل يراودها في كل عجوز تقابله وكل شيء تبتاعـــه أن تصل إلي شيء، وهل تراها تجد الدفاتر القديمة والمسجل فيها أسماء المرضي لخمسين عاما مضت وتبحث فيها عن شيء. أو لـــم يـــتح لطبيب عجوز وأريب مثل أندراوز أن يعرف جيدا عـــائلات هـــذه المدينة الصغيرة التي عمل بها خمسين عاما متواصلة، مسافرا إليهـــا بشكل يومي عدا الاثنين من القاهرة ونازلا من القطار في موعـــده، حيث ينتظره حنطور حسين الدولة ومن بعده ولده عبد الوهـــاب ثـــم أخيرا حفيده حسين عبد الوهاب حسين الدولة ليوصله إلي العيـــادة، فيعرف كل أهل المدينة النحيفة والقرى المجاورة بوصول أنـــدراوز الذي لا يكف عن التساؤل كلما أطل من نافذة قطار شبه خال يـــصل المحطة في العاشرة وعشر دقائق يوميا: كيف يتواصل أهل كل هذه القرى المتناثرة بلا منطق وسط هذه الغيطان الفسيحة ككتل صـــغيرة من دور طينية لا تكاد تبين من بين الأشجار لولا مآذنها المتواضعة، بلا طرق تربطها سوي مدقات ملتوية كثعابين تقترب وتبتعـــد بـــلا منطق أيضا وإن كانت تلتقي في نهاياتها لابد بطريق عمومي مترب يحاذي الطريق الزراعي السريع وشريط القطار حتى المدينة حيـــث عيادته، حتى صار بإمكانه أن يرد كل مريض يكـــشف عنـــده إلـــي أصله حيث يتذكر كل العواجيز الذين عولجوا عنده، ويمكنه حينئـــذ أن يحكي للتسرية عن المريض مئات الحكايات عن أناس من عائلته

يقطنون قريته، ولا يعدم غالبا أن يجد ما يربط بين مرضاه من اثنتين وأربعين قرية حين تتشابه الأسماء والألقاب.

لخمسين عاما سيقف القطار شبه الخالي لمدة دقيقة واحدة كي يتمكن أندراوز من النزول في المحطة. وسيقف القطار في اليوم التالي ولا ينزل أندراوز، وسينزله في نفس الموعد من السيارة السوداء أقاربه ــ كما أوصي ــ في مقبرة تتسع لفرد واحد بهذه المدينة. مقبرة تطل بفوهة وصليب من ناحية علي مقابر الأقباط ومن الأخرى علي مدافن المسلمين، ليشارك في وداعه أولئك الذين كان يصدر تعليماته المشددة لموظفي وحدة الملاريا والأوبئة بمعاطفهم البيضاء بمعاملتهم برفق وإنسانية، وأن يحددوا بدقة أماكن الرش علي الرأس من الخلف وفي ياقات الجلاليب، غير أنهم كانوا يوجهون البدارات إلي وجوههم كأنهم يطلقون عليهم النار ويديرون أوجههم للخلف حتى لا ترتد إليهم رائحة مركبات الفوسفور العضوية أو الملاثيون، وكان أندراوز يصرخ ــ أيام كان طبيب المركز ــ بأنهم آدميون، وعلي ممرضيه أن يوجهوا بحرص بخاخات البودرة نحو أقفيتهم فقط بالقدر الذي يكفي لقتل الحشرات والقمل والجرب المعدي، غير أن ممرضي الملاريا كانوا يرشونها كيفما اتفق بهذه الطريقة العدائية والمتعالية فيبدو أهل المدينة والريفيون البؤساء مغبرين كأنهم خارجون من طاحونة، فيما يفزع الأطفال الصغار وعيال المدارس، أو يسقطون من الإعياء إثر زيادة الجرعة أو دخولها للجسم من فتحات أخري.

الذين يلبسون الآن هدوما نظيفة وشعورهم مسرحة، هم الذين تكاتفوا قبل ثلاثة وعشرين عاما ليدفنوه بأنفسهم، وجلسوا خلف مقبرته من جهة مقابر المسلمين ليقرأوا القرآن، وتطوعوا فيما بعد

بوضع لافتة من رخام وكتبوا عليها: قبر المرحوم أندراوز الحكـيم قدس الله روحه، وتطوع آخرون بزراعة شجرة بنسيانا أمام المقبـرة تظللها وما حولها الآن كخيمة، وهم أنفسهم الذين اختزلـوا مـدافن الأقباط كلها فيما بعد إلي ترب أندراوز كلما مروا بهـا أو جـاءت سيرته عرضا ويضيفون: الله يقدس روحه.

تنهدت أروي التي كانت تشعر أنها من هنا يمكن أن تعثر علـي بداية الخيط، رغم أنها لم تكن تبلغ من العمر آنذاك سـوى سـنوات قليلة، فدفاتر أندراوز أقدم بعشرات السنين من المستشفي الأميـري، والطبيب الذي في عيادة أندراوز لابد أنه يمتلك بعضا مـن صـفاته وعاداته. هكذا كانت تعتقد. لكنه قال: عاشت الأسامي، فـودت لـو تصرخ بأنها كانت هنا من قبل.

ــ هل أنت خائفة؟

ــ ....

ــ زوجة من يا أروي؟

ــ راشد عبد المجيد.

لم تهتز ملامحه. تأكدت أنه لا يعرفه أيضا. لو كـان أنـدراوز موجودا لخبط المكتب بيده وصرخ: آه راشد! الولد الـصغير الـذي ظل يمسك ذيل جلباب أبيه عبد المجيد أينما يذهب، وكان عبد المجيد يحبه ولا ينقصه سوى أن يطلع له البز ويرضعه. متى كبـر هـذا الولد ومتى تزوج؟ والله عجزت وراحت عليك يا أنـدراوز! راشـد الذي طلب لحمة مرة فلف عبد المجيد المدينة كلها ولم يجـد، ولمـا وجده يبكي لم يتحمل، فذهب إلي أندراوز ورأسه وألف سـيف أن يقطع قطعة من كتفه للولد الذي يبكي ولا يوجد بهذه المدينـة الفقـر جزار واحد عنده لحمة. تعلل أندراوز بأنه لا يوجد لديه بنج فقـال :

لا يهم .. سأتحمل! راشد هو الذي طلعت به من الدنيا يا حكيم باشا وأمه ميتة وأنت تعرف. ولم يخرج عبد المجيد إلا بعد أن أعطاه أندراوز حقنة البنج وطلب حسين الدولة بالحنطور ليذهب بهذا المجنون إلي داره.

هو بعينه راشد الذي لم ينه دراسة العلوم السياسية، تلك التي صمم من أجلها أن يترك الآداب والتجارة والتربية. حسن مجموعه في الثانوية العامة لثلاث سنوات متتالية، حتى صار تصميمه مثار إعجاب الكثيرين، لولا أنه صمم على ألا يستكمل العلوم السياسية أيضا. فتحول إعجابهم إلي ريبة، واسترجعوا فقط إصرار أبيه عبد المجيد كل عام علي استنبات المكرونة في حقله. هو بعينه راشد الذي كان يعرف نقطة ضعفها. أنت حساسة أزيد من اللازم. اذكري لي أحدا مات لأنه لم يعرف نسبه. هل سأل أحد: ابن من كان الشاطر حسن، أو ابنة من كانت ست الحسن؟ نقطة ضعفك أنك تشعرين دائما بأن خلفك تاريخ طويل وحقيقي لكنه مفقود.

ــ عاشت الأسامي يا أروي!

لو كان أندراوز موجودا لما نسي شيئا.

كمن يطارد أيائل شاردة، كانت عيونه زائغة. تراوغه روائح قديمة، غامضة ومتداخلة، وتشتته ألوان مترامية، تتعانق وتسيل، وتتلاشى نقرات دف بعيد، وترانيم كأنها تسابيح. انتبه إلي صدرها وأشار:

ــ أكان هنا عقد؟

ــ يااه .. وانفرط منذ زمن!

اختلطت الأمور أكثر، واقترب صوت الدرويش المداح كأنه عاد كما كان لحظة صعوده السلم، وبدا طويلا في جلبابه الأزرق، وتذكر

أنه كان متزنا رغم سرعة الكارو وانعطاف الحصان المفاجئ من شارع الكورنيش إلي شارع المديرية، وبدا كأنه يغني لنفسه وتأكد تماما أنه لم يكن ينظر باتجاه أحد، وانه ظل كعادته يمرق كالسهم من جنوب المدينة حيث كوبري الرياح التوفيقي وشارع الجيش ثم النفق ثم شارع سعد زغلول إلي شمالها حيث الكوبري علي النيل، دون أن يعرف علي مدي عشرين سنة أين يذهب ومتى يعود. صار صوت الدرويش قريبا لولا أنه يعرف أنه يمرق كالسهم ولا يعود في نفس اليوم. خمن! يا للصعوبة، كأن عليه أن يفصل إبرة عن كومة قش.

جذب راحتها. كشف ذراعها كي يقيس الضغط. خمن! عادت أنوار تتلألأ، وبدت الذراع الصغيرة شاهقة البياض، كأنها تضيء. أكمل الكشف، هذا الصدر النافر بحلمتيه البنيتين، وهذه الرقبة، بالغ في الصعود بالفستان الجينز لأعلي، هذا الصدر كأن شيئا ينقصه، قال مؤكدا:

ـ عقد من لؤلؤ؟

مندهشة أومأت برأسها مرة أخرى، فارتعد بدنه. تداخلت المشاهد كأثواب من أقمشة ملونة مفرودة ومعقودة ببعضها كأمعاء أرنب. لجأ إلي تاريخها المرضي. استعان بأسئلة ظاهرها تسجيل بيانات الحالة، وباطنها هدف في رأسه. الاسم والسن والعنوان، العادات الخاصة، تاريخ آخر دورة، مرات الولادة والإجهاض السابقة إن وجد، نوعها، تاريخ الزواج، تاريخ مرضي سابق، عائلي، مرضي، جراحي. تقرير طبي مفصل. بدربة كان يمط فيما يرغبه، ويختصر فيما لا يهمه. لكنه لم يرو ظمأه، أو حتى يوصله لخيط قوي يجذب ذاكرته بعنف. أغلق جهاز الضغط متحيرا:

ــ ألم نلتق من قبل؟

ــ التقينا.

حين أيقظه أبوه لينتقل من مكانه إلي مكان نومه المعتاد، لم يكن يبتسم له، إنما كان يبتسم في معطفه الأبيض للمرضى في عيادة أندراوز. كان يفحصهم بسماعة في أذنه، وكانوا كثيرين، إلا أنهم كانوا يميلون أولا على نعمات الملط، يسألونها عن أندراوز، قبل أن يمثلوا مترددين بين يدي طفل صغير ذي معطف أبيض. وما إن ينتهي من فحصهم حتى تتراقص أجسادهم من الفرح ويلوحون له بأيديهم التي كانت معتلة في الهواء، فيبتسم لهم.

دفعه أبوه في كتفه متهكما: تحلم وما زلنا في أول الليل؟ في اليوم التالي مرضت أمه وذهب بها إلي أندراوز فلم يجده. وحين عاد من جنازة أندراوز، ربت كتفه، وقال لزوجته إن ولدها غريب، تجيئه الأحلام في الهزيع الأول من الليل، تنفصل روحه عن جسده النائم. كان يضع أذنه علي صدره متسمعا دقات قلبه وحركة تنفسه، فلا يظفر بشيء. تنفصل روحه تماما. تسبح في الفضاء. تلتقي أثناء سباحتها مع أرواح لآخرين موتي وأحياء. تسيح وتلف وحين تعود إلي جسده الراقد كميت، تعود بانطباعات غريبة، غير مرتبة حين يرويها وغير مفهومة غالبا، ولا يبقى منها سوى إشارات يشعر بها أبوه، فحظر لذلك أن يوقظه أحد بعنف، أو فجأة أثناء الحلم حتى لا تضل الروح أثناء عودتها، وتولى إيقاظه بهدوء وعلي مراحل، وكان أكثر ما يخشاه أن يموت نتيجة استيقاظ مفاجئ أثناء الحلم، علي النقيض منه هو الذي ينام علي وضوء فتأتيه شخصيات الحلم بهيئة ملائكة أو أشباح تدخل من ثقب الباب وتقف علي حافة السرير

حتى تسلمه الرسالة، ثم تعود ببساطة من نفـس الثقـب، ليـصحو متذكرا الرسالة كلها بالتفصيل.

كحلم في الهزيع الأول من الليل، لم يصل إلي تحديد فعلي أيـن رآها. حتى حكاية المريض والبيت ذي المداخل الخمسة غير متأكـد منها تماما، فقد خبر المدينة كلها، ودقق في شوارعها وحواريها لكنه لم يعثر علي بيت مشابه. كأنه كان منوما أو لعله كان يحلم. لم يمده التاريخ المرضي بشيء، ولم يشغله في الفحص سوى رقبتها التـي خلت من العقد. اعتقد أنه رأى هذه الملامح، بيد أنه لم يجرؤ علـى مفاتحتها في أشياء غير متأكد منها. كـف عـن الأسـئلة. صـمت مستعيدا حالة الهدوء والنشوة التي ابتعدت منذ دخلت عليه أروي.

حافتان بارزتان. بينهما هوة سحيقة. تيه.

ــ أريد أن أتعشي.

ألجمتهم الفرحة جميعا فصرخوا ثم ضحكوا، والتفوا من حولها في دهشة، وبدوا في دهشتهم البدائية ولغطهم المتداخل أشبه بحظيرة من البط هاجت فجأة، فلم تميز من صخبهم الجزل سوى سؤالهم: أين كنت؟ ولم تكن فترة اللعب طويلة لتتضور بهذا الشكل. نفس الوقت ما بين الغداء والعشاء، لا يزيد. دخلت عليهم فجأة وصرخت كأنها لم تأكل منذ سنة: أريد أن أتعشي! وكانوا بالنسبة لها كمن انتهوا لتوهم من العشاء بدونها، غير أنهم صرخوا وفزعوا، ثم ضحكوا وأخذوها بالأحضان، وقال لهم عليٌّ الدين ــ الذي رأتهم يسمونه علي محمود ــ أنه وجدها في نفس المكان الذي غابت فيه. غابت كأن الأرض انشقت وبلعتها وظهرت في ذات المكان الذي صار مشتلا لأشجار الزينة بعد أن انحسرت عنه المياه، بذات الفستان، وذات تسريحة الشعر، وذات الحذاء. كعملة فقدت، تم البحث عنها بدقة دون جدوى، وبعد فترة طويلة ظهرت في نفس المكان. كان سؤالهم قد توحد: أين كنت؟ فقالت ببراءة:

ــ كنت ألعب.

ردوا في صوت واحد وعيونهم مفتوحة:

ــ سنتين؟!

كان الماء يفيض من فرع دمياط، فيغرق المسافة من عزبة الزراعة حتى كفر السرايا. يجرف في وجهه الموز والقصب الأحمر والذرة، فلا تصمد طويلا حجارة الدبش التي يضعها الأهالي

وعمال الطرق في صده. يخرج القريبون من الشاطئ مـن دورهـم علي ألواح من خشب حين يدفع الماء المحمل بالطمي أبوابهم كأنـه طوفان. هل كان يعلم أنه الفيضان الأخير، فقرر أن ينتقم ويغرق كل شيء؟ صرخ علي محمود علي ابنته أروي، ذات الـصرخة التـي صرخها بعد عامين بين أشجار المشتل حين فاجأته ذات مساء فـي نفس المكان. تخلف عن الطوفان الأخير طمي وغرين أحمر نـاعم، وانحسر الماء عن مساحات واسعة من طرح النهر المحمل بـالطمي الأحمر، وفي ذات المكان زرع علي محمود مشتلا لأشجار الفواكـه والزينة، وأقيمت البيوت مرة أخري بالحجر دون خوف هذه المـرة، وأطلت الشرفات العالية عليـه دون رعـب، واسـتبدلت الـشوارع بالحارات، فسميت حارة الدهشان بشارع الدهشان .

صارت تعصر ذهنها لترد علي أسئلتهم، مجهدة ذهنها لتكتـشف فترة ما، محددة لا تعرف طولها، بدأت بلعبهـا مـع أطفـال هنـا، وانتهت بظهورها في نفس المكان، ثم طلبها للعشاء.

فترة مفقودة من ذهنها تماما. كلمـا حاولـت اسـتعادتها، تعـود الذاكرة منسابة وحيوية ومتدفقة، لكنها عند الحافة البـارزة، تتعثـر وتعبر الهوة السحيقة تماما كصفحة تتعذر قراءتها، لتلتحم خلف حافة أخرى بارزة بطلبها المفاجئ للعشاء. كان عليٌّ الدين منذ أن انغلقت خلفهما بوابة القصر يطوقها بذراعيه علي الحصان البني ذي القوائم البيضاء، ونقطة سوداء بين عينيه، يهبط بها هذه الدرجات الحجريـة المنحدرة، يزغزغها فتضحك، يراوغها كطيف وسط مروج خضراء كعادته. يتخفى خلف نخيل كبير ثم يبرز من حيث لا تتوقع، فتصرخ وهي تضحك وسط بنات وصبيان يمرحون بثياب مبهجة وملونة، ثم انتهي الاحتفال فجأة، قبل أن ينتهي اللعب. أظلمت الـدنيا قبـل أن

تجده خلف جذوع النخيل، وبين الأعشاب والأحراش. شعرت أنها جوعانة وبردانة وخائفة، فنادت بين الأشجار المعتمة بلوعة:

ــ علي الدين..أين أنت يا علي الدين؟

كأن الأرض انشقت ولفظتها بين الأشجار، فاحتضنها وهو يصرخ بفرح:

ــ أين كنت يا أروى؟

وكان كلما ينزلها من حضنه يهمس في أذنها: ما حكاية علي الدين هذه يا أروى؟ ومن شرودها لم تكن ترد ولم تشأ أن تسأله عن حكاية علي محمود هذه. كان لكل شيء طعم مدهش: العشاء، والبشر، والشوارع الضيقة الملتوية كمتاهة بإضاءاتها الخافتة المنبعثة من كوات صغيرة بالحوائط. كانت تتلفت كتائهة للأكواخ الطينية، تقترب منها بلهفة وشوق لترى الأحصنة، فيخرج منها آدميون، يفتحون أفواههم في دهشة، ثم يبتسمون ويريدون أن يحتضنوها فتشلها المفاجأة وتتشبث فزعة بعلي محمود. توقفت أخيرا وقالت: كفى.. أريد أن أرجع. نظر إليها مندهشا: إلي أين؟ فهزت رأسها:

ــ إلي القصر.

قال إنها لم تكد ترجع إلي أبيها وأهلها ومدينتها، فأين تريد الذهاب؟ بكت ولم تكف حتى أسلم نفسه لها، تسير أمامه فيتبعها، لا تقودها عبر غرب المدينة أو جنوبها الغربي سوي روائح غامضة وصور بعيدة لأرض غير سهلة، تصعد بها لأعلي. منجذبة بهذا الانحدار إلي أعلي، كانت تثق أنها ستجد ما تبغي هناك، في منتهى المرتفع. لم تكن تسلك طرقا بقدر ما كانت تخوض وسط زراعات ومدقات صغيرة منحنية وملتوية، تتجاوز أكواخا ودورا وقري. تغفو

وتفيق، ترقد وتنهض، يروح ظلام ويجيء صباح، ولا تحصل من متاهتها الكبيرة إلا علي سؤاله المندهش واليائس: ماذا تريدين؟ وعم تبحثين؟ تظل كخرساء حائرة، تتوق إلي مكان مثبت جيدا بذاكرتها، رائحته في أنفها، تراه، لكنها لا تستطيع نقله إليه، فتنفجر في بكاء أخرس وعنيف.

نصحه خالها بعدم فتح الموضوع أمام أي مخلوق، ونفض إمام الفنجري يديه ـ معلنا عجزه ـ وقال إن الزمن وحده كفيل بعلاج الأمر، وما عليه سوى أن ينتبه إليها ويتتبعها لأنها عرضة للاختفاء مرة أخرى، وحذره من عرضها علي الأطباء خصوصا أندراوز. وطلب محمد البيه مرة أخرى خصلة من شعرها واسم الأم الحقيقي، وعاد ليؤكد أن كل ما فعله سليم، بيد أنه لا يستبعد احتمال أن تكون البنت قد استبدلت عن طريق الخطأ بأخرى، تشاركها الاسم واسم الأم، إلا أنها ابنة ملك قديم، ومن ثَمَّ لن يكون الحل سوى بالانتظار.

كان شرودها المصحوب بالذهول والحدة والعصبية هو السمة الغالبة، مع ذلك كان علي محمود على استعداد لأن يتبعها إلي ما لا نهاية، كأنه الوحيد الذي يشعر بما تعانيه وتبحث عنه، لكنه لا يملك حيال ما تطلبه سوى أن يتبعها متسائلا في صبر:

ـ ألا يكفي هذا البحث يا أروي؟

لا ترد. يعاملها برقة كأنها مريضة حين تسأله عن الأشجار الغريبة في المشتل فيرد باستغراب:

ـ إنه التوت يا حبيبتي؟

تقول إن التوت الذي تقصده ليس ذلك، فيقول: ربما تقصدين التوت الرومي.. الأفرنجي. لا نعرفه، والتوت المتوافر هنا، الأبيض والأسود وخد الجميل، فتقول: لا. حتى الأشجار التي تعرفها، تتوتر

حين تسأله فيرد وهو يشير بإصبعه في الهواء بالترتيـــب: كـــافور، جازورين، عبل، صفصاف، نخيل وزنزلخت، فتقول بعنـــاد: لـــيس هكذا، له اسم آخر، لا تذكره ثم تـــسير علـــي الطريـــق الـــساحلي الموازي للنهر، تسأله عن مساحات الموز الهائلة، فيقول إنها جزيرة في النهر ملك لأولاد فهمي باشا، وهي مزروعة بالموز منذ كان هو نفسه صغيرا لا يعرف الموز، ولا توجد هناك قصور يا أروي، فقط سرايا كبيرة، وسط مائتي فدان من الموز، رآها مرة واحـــدة حـــين كان طفلا، وكان فهمي باشا أول من زرع الموز في جزيرته، ولـــم يكن هو أو أترابه في هذا الجانب من النهر يعرفون بعـــد مـــا هـــو الموز وما هو طعمه، حتى عبروا النهر وتسللوا إلي الجزيرة عوما، وبعد إرهاق قطعوا أوراق الموز الكثيفة وأخـــذوها إلـــي الـــشاطئ وجلسوا يمضغون الورق متحملين طعمه المقزز حتى تقيـــأوا علـــى الشاطئ ما أكلوه، وظلوا من هذا الجانب يشتمون فهمي باشا الجالس بعيدا بلا شك في كرسيه أمام السرايا وهو يعلم أنه يزرع مـــوزا لا طعم له.

تواصل السير كأنها مغيبة، حتى طحلة وكفـــر طحلـــة وســـاحل دجوى، بين أشجار المشمش والبرتقال والمانجو. تحتار حين تـــدمع عيناه، إذ تكون حدودها حين تتلألأ في عينيه، فتعرف أنه ليس لديـــه بعد ذلك شيء، وأنه تعب. تتظاهر بالصمت. استفحل الأمر فقرر أن يذهب بها لأندراوز، لكن القطار القادم مـــن القـــاهرة باغتـــه علـــي كوبري الرياح. نفس القطار الذي خلا لأول يـــوم مـــن أنـــدراوز، فتركها فجأة؛ وهي في الخامسة دون أن يترك لـــذاكرتها الـــصغيرة بعض ملامحه، أو بيتا يتردد في جنباته اسمه، فتنساب مـــن عينيهـــا الدموع الحارة كلما مرت بكوبري القطارات علي الريـــاح التـــوفيقي

حيث كان يعبر حاملا بين ذراعيه المفرودتين كومـــة مـــن أشـــجار الياسمين وشتلات السرو والمشمش، ليبيعها في أول طريق العمـــار وبلتان حين فاجأه القطار.

مرتان يجيئه في نفس الليلة ولا يكلمه. مرتان يسلمه ورقا أبيض ملفوفا كبكرة من حرير. ومرتان يستيقظ ولا يجد شيئا. في الثالثة قال له: "لا ترحل من كون إلي كون، فتكون كحمار الرحى، يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه، ولكن ارحل من الأكوان إلي المكوِّن"*. أذن الفجر، فنهض. قرر أن يزوره قبل الامتحان. رأي أن يأخذ بيرقا أبيض، يضعه علي مقبرته في المرج، وقبل أن يصل كانت دموعه تنهمر علي انتقاله وانقطاع الخيوط القديمة نهائيا بهذا الشكل السريع ولم تكد تبدأ. أذهلته ـ حين جفف دموعه ـ الراية البيضاء المرفوعة علي المقبرة، في ذات المكان الذي فكر أن يضع فيه بيرقه.

كحلم في الهزيع الأول من الليل، ذهل حين رآه بنفس الجلباب الذي تركه به أول أمس، ونفس صمته المتأمل. انتفض من خلف مكتبه ليرمي بنفسه في حضنه. قرر ألاَّ يتركه من بين ذراعيه.

ـ كيف جئت؟!

كنت عابرا من هنا وأردت الاطمئنان عليك.

ـ أوحشتني والله العظيم.

كان يعي وهو يخاطبه أنه انتقل أول أمس، وانه لم يدفن هنا، فقد تأخر أعمامه في الوصول إلي المكان، وإنقاذا للموقف دفنه أقارب زوجته في المرج.

كحلم في الهزيع الأول من الليل، عاتبه لأنه لم يجيء، وعرَّفه أن مقبرته هنا ظلت مفتوحة بانتظاره حتى منتصف الليل. بعد ذلك أغلقها جمعة أبو الجود. ابتسم:

ـــ أنسيت أن طاقية واحدة لا تسع رأسين؟
ـــ حتى بعد الموت؟
أومأ برأسه، ثم دمعت عيناه.
كأنه حلم. دفع إليه بكوب الشاي. فرد كفيه معتذرا ومستغربا كأنه يلومه.
ـــ هيه.. ما أحوالك؟
ـــ الحمد لله.
ـــ أعندك ورق هنا؟
فأومأ برأسه فرحا.
نهض لإحضار الورق، ولم يكن يدرك إن كانت الترانيم الخافتة والغامضة التي تتناهى إلي رأسه للدرويش المداح، أم أنها أنينها المتناهي من غرفة الولادة. تلك الترانيم القريبة من لحن أوشك أن يعرفه، غير أنها انقطعت بمجرد دفعه للباب. لحقه صوته:
ـــ هل معك أحد؟
ـــ امرأة تلد.
ـــ هل معها أحد؟
ـــ لا أحد.
مال بجسمه ليخرج الورق من الدولاب الزجاجي، وبينما كان الواقف في غرفة الولادة لا يرى من النخل سوي جذوعه الباسقة، كان المستلقي يرى الجريد متدليا كأنما من السماء، فخطر له أن الترنيمة كانت " يا جريد النخل العالي".
خرج بالورق من الغرفة، واصل كلامه بأنها بكرية، وأمامها وقت حتى تلد، سيمضيه معه، لكنه لم يجده. كأن أحدا انتزعه فجأة. من أمام باب العيادة جاءه صوته:

ـــ أمامك وقت إذن؟

ـــ نعم .. وقت طويل.

أطل في بئر السلم، لكنه لم يدركه. كان الصوت المعاتب بعيدا:

ـــ يا للحجاب! شهدت الكون ولم تشهد المكوِّن.

وضع الورق علي مكتبه حزينا وصرخ: يا ليلي! فخرجت من حجرتها هادئة ومنيرة تتلفت. خبط رأسه بيده، وبدا مرتبكا:

ـــ أروي أم ليلي؟

ـــ وهل هناك فرق؟

لم يرد. هذه عادته حين يفاجئه السؤال. يتزاحم فجأة أكثر من موضوع علي لسانه، فيجيب إجابة لم يكن يقصدها، أو يبص لجهة أخري مصابا بحبسة في الكلام، فقد تزامنت رغبته في معرفة لماذا طلبه أول أمس، ومعرفة أخباره، مع تذكُّره المباغت أن الدرويش المداح علي مدي عشرين سنة كان يرتدى نفس الجلباب، وأن الصبي الذي لا يكبر ويقود الحصان ويوقع في ذات الوقت علي الدف هو ابنه، وأن العربة علي مدي عشرين سنة أو يزيد فارغة، لا شيء عليها، وأنه بالسرعة التي تجاوزه بها هذا الصباح، فإنه يذرع المدينة من شمالها إلي جنوبها في خمس دقائق وعشرين ثانية، لكنه لم يدر لماذا غيَّر الدرويش طريقه هذا الصباح؟

ألم بسيط، لكنه غامض ومتفرق. شعرت بالمباغتة رغـم توقيتـه المتوقع. خالجها شعور بأن شيئا غير عادي سوف يحـدث، وأنهـا تخوض وحدها ــ في طريق قد ينحدر في أي اتجاه ــ رحلة قـد لا تنتهي بالضرورة نهايتها المعتادة. نوبات من ألم مبهم. تتقلص بطنها وتتكور، فتسلم رقبتها للخلف، وتسند بيديها أسـفل ظهرهـا حتـى يزول. تغمض عينيها وتشم بأنفها فانلة صغيرة وجلبابا ملونا مفتوحا من الخلف، وطرطورا من التل الأسمر، فترى كـم سـيكون لائقـا بالآتي ملابسه الطفولية وعقد اللؤلؤ المنفرط.

ــ إديني عمر وارميني في البحر.

راديو الجيران أم كلمة عابرة لشخص بالشارع؟ لمـاذا حواسـها اليوم مرهفة لهذه الدرجة؟ وقعت عيناهـا علـي عزيـزة بـشعرها الأحمر تضبط فيونكتي شعرها، فأغلقت النافذة بسرعة. تحب عزيزة جدا لكنها لم تكن ترغب في رؤيتها اليوم. فتحـت البـاب لتخـرج، فوجدتها أمامها بشعرها الأحمر تمد ذراعيها الـصغيرتين، حاملـة صورتها ذات الفيونكة الحمراء في يد وملف التقديم لأولي ابتـدائي في عام قادم في يد:

ــ تانت أروي.. بتقولك ماما.. دبسي لي الصورة هنا.

في رسالته المقتضبة، أخبرها راشد أن المدة قد تطول، لكنه حتما سيعود إلي ملكته أروي وأميرته التي ستخرج إلي الحياة. في ردهـا لم تخبره أنها صارت وحيدة، وعبد المجيد الصعلوك مضحك الملوك قد خانها ولم يعد يجيء بمجرد التفكير فيه، ومـا إن أتـم الطبيـب فحصه مؤكدا أنه سليم حتى مات، وأن البيت الذي كان فسيحا بهـذا

الشكل الذي يعرفه، فرغ حتى من الحصان البني البعيد، وأن عزيزة الصغيرة سوف يضيع عليها عام دراسي كامل من أجل اثني عشر يوما.

فقط تساءلت: إن كان بإمكانه أن يتصور أنه لكي تدخل عزيزة المدرسة هذا العام، كان لابد أن ينقص عمر أمها اثني عشر يوما أخري.

أغلقت الشبابيك وبابي حجرتيها علي الفناء، وقالت لعزيزة التي فاجأتها بالملف والصورة واقفة أمام بوابة الفناء: لماذا صحوت مبكرا يا زيزي؟ لا تنسي أن اليوم عيد ميلادك. كل سنة وأنت طيبة. قبلة لك وهذه لماما فاطمة. أوشكت أن تقول إن ماما فاطمة تعني جدتها، وأن ماما الحقيقية هي عزيزة، وأن ما يحدث تزييف كامل لن يغتفر لوعي الصغيرة، لكنها صمتت وأرجأت تدبيس الصورة حتى تعود عندما غالبتها الدموع، لمجرد أن زيزى لا تعرف ماما الحقيقية، ولو بخدعة مؤقتة من باب الشفقة من قبيل: ماما عزيزة مسافرة وعندما تعود ستحضر أشياء كثيرة.

صعدت المنحدر وأخذت طريق الكورنيش، فلم تر النهر. كانت نوادي النقابات تحجبه: التطبيقيين، الزراعيين، المعلمين، الشرطة.

ــ أين النهر؟

وحدها علي الساحل الممتد من الطريق حتى المجري الحقيقي، والذي آلت وراثته إلي النوادي، تصيبها الوحشة وهواء الصباح البارد والسكون الغريب، والألم يستحيل أكثر شراسة حين يتكوم في البطن ويضرب في الأسفل كأن شيئا سيسقط. تكتم الآهة وتنحني إلي الأمام كي يخف الألم، حتى بدت وهي تغالب الألم وحدها في هذا الطريق الفارغ ذي النسمة الباردة كمن يطلق عليه النار في

مكان فسيح فيتلوى في الهواء قبل أن يسقط. مالــت إلــي شــارع النبراوي، تحتمي بالبيوت الصغيرة والأرصفة. كــان أكثــر دفئــا وحميمية من الكورنيش. قبل أن تــصل ســوق الخــضر بزحامــه وصخبه، انحرفت يسارا في شارع يوازي الكورنيش وشارع السوق لكنه نائم وهادئ. بدت غير لافتة للنظر، وهي تتكئ كعجــوز علــي الحيطان لتتفادى الألم الذي يتجمع في ظهرها ثم ينفجر كعيار، وبات واضحا أنه في ذات التوقيت بدأت رحلتان لكائنين، يــسعى أحــدهما للخروج بكل عنفوانه من آخر يتشبث بالحيطان وبفتحات الأبــواب. وبدا أن هذا الطريق لا تعرفه. ولا تجدي في معرفتــه أقــوال مــن مروا. روح تنفصل عن روح، ونفس تنعتق من أسر نفــس، فكيــف للكلام أن يعبر عن رحلة تتعطل فيهــا الــذاكرة، ويــسير المــارة كأحصنة مغماة في نفق؟

انطلق الصوات من داخل بيت إمام الفنجري، فهــرع الواقفــون أمام دكان سمير البقال والمتراصون أمام المحكمة الشرعية. استراح إمام الفنجري من إدخال يده في القرح الغائرة التي مــلأت جــسمه، كأنه يدخلها في سيالة دون وعي، واستراح من الصراخ المتواصل. أسرعت حتى وصلت إلي شارع المديرية، بنصفه الأيمن التجــاري وصخبه حتى المحكمة، ونصفه الأيــسر بــصمته الواضــح حتــى الكورنيش رغم البندر والمديرية وعمر أفندي الجديــد والمطــافئ، فأذهلها أن تكتشف الآن فقط أن للشارع نصفين: نصفا حيا ونــصفا ميتا. اتجهت إلي اليسار. باغتها الدرويش المداح قادما من النــصف الميت. أثار حنقها تعليقه لحصان في عربة قذرة. ودت الاشتباك مع الدرويش الذي لا يعلم أن الأحصنة للركوب فقط والجر للبغال، لكنه لم يقف. كان الحصان عفيا يشبه إيقاع حوافره المنــتظم الــرقص،

حتى أن الدرويش الواقف علي سطح العربة المارقة لا يسقط، يخرج بخار الصباح من منخاره طازجا. ودت لو توقفه وتطلق سراح هـذا الحصان في الخلاء، فالأحصنة لا تهان بهذا الشكل.

للأحصنة حب لا تقاومه. شعرت بروحها تنسحب عندما انسحب حصان كان يتطلع وحيدا في واجهة عمر أفنـدي الزجاجيـة حـين أحس بصاحبه يقترب. جذبتها أذناه الدقيقتان وقصته الطويلة، وشكل الرأس، حركة جفونه الذكية، وسرجه الملون، وجسده البني اللامـع وقوائمه الرشيقة وبطنه الصحيحة، ولمعة الذكاء في عينيـه. قالـت مستحيل أن يكون حيوانا هذا الفرس البني الواقف وحده أمام عمـر أفندي، يتأمل في الزجاج، لا يهتم بالسيارات ولا بالمارة، ولا يأخـذ السكر من أحد ويهز رأسه بالرفض كلما اقترب أحد مـن اللجـام، وحين شعر بصاحبه من خلف الزجاج يتجه إلي الخارج، هز أذنيـه وتحرك باتجاهه، فامتطاه صاحبه الذي بدا كأنه كان يغلقـه كـسيارة بمفتاح وسار به سيرا وئيدا.

كانت ترنو بحسرة في امتداد شـارع المديريـة إلـي الحـصان والدرويش. لم تتبين من الزحام والنشاط غير المعتاد فـي النـصف الصاخب من الشارع أن اليوم هو الإثنين، حيث السوق الأسـبوعي، وإنما تبينت أنه كذلك حين رأت مدخل عمارة أندراوز خاويـا مـن المرضي والمحلات بجواره مغلقة. قبل أن ترتد متحيـرة، أشـارت نعمات الملط أنه فوق ينتظرها. لم يكن ثمة أحد بالشارع سواها ولـم يبد أن نعمات تكلمها. واصلت صعود السلالم، وتنفست بارتياح حين رأت مستطيل الشمس المشرقة خارجا من بـاب العيـادة. اتكـأت بمرفقها علي الباب وظلت صامتة.

لم تعد تشعر بالألم كما كانت في الطريق، ولم يكن بأذنها سوى وقع أقدام راشد والذي سيشبه صعوده وقع أقدام حصان يجري. تعرفه من رائحته الأشبه برائحة برتقال حادة، تمكث في المكان حتى بعد رحيله، عالقة بملابسه وبكل ما يلمسه. قامت من السرير، تتمشى ببطء في الصالة بين نوبات الألم، تطل على السلم بلهفة كلما هبت رائحة برتقال. لم يخرجها من شرودها إلا سؤال الطبيب:

ــ أين راشد الآن؟

لفظه الباب بقسوة ثم انغلق، فلطشه هواء بارد. لـــم يقـــو علـــي التحديق في شمس فضاء خاو، ولم يتبين من الدفعة الغاضـــبة فـــي ظهره أو الباب الذي انغلق بقسوة شيئا يذكر. تقـــدم راشـــد للأمـــام واستدار وحدق بعينيه. لم يكن مكانا يعرفه ولم تكـــن ثمـــة حديقـــة، وحيثما كان يراها دائما، لم تكن هناك. حاول الدخول، لكـــن البـــاب الذي لفظه منذ قليل كان قد أغلق. من أيـــن جـــاء إذن بكـــل هـــذه الأشياء؟

سار طويلا، حتى قابله أحد المارة. سأله عـــن الوقـــت، فقـــال: العاشرة. وضع يده علي جبهته المتورمة محاولا التذكر:

ــ في أي يوم نحن؟

ــ الإثنين.

كانت كدمات جبهته مريعة وهو يستطرد في الاعتذار ويستفـــسر عن الشهر والسنة، حدق المار في ملامحه متوجسا، ثم هرول.

واصل السير تاركـــا نفـــسه لإعلانـــات الـــشوارع، ولوحـــات الأتوبيسات. وبقدر ما كانت ذاكرته تنتعش ببطء كلمـــا توغـــل فـــي الشوارع والزحام، تبين من تخبطه أنه عنصر معوق لمارة يسيرون بسرعة، ويعرفون فيما يبدو اتجاهـــاتهم بـــشكل صـــارم فـــي هـــذه الشوارع المربكة.

كأسير بصحراء واسعة لا يؤدي السير في أي اتجاه منها ســـوى إلي خواء، كان يشعر أن أحدا بيده أمر هـــذه البيـــداء، بإمكانـــه أن يخرجه منها إذا شاء. بينما بدا منزعجا كمن تأخر في نومـــه عـــن شيء هام، كان يستيقظ على نار تهب علي مرمي بـــصره باتـــساع

الأفق، تسوقه أمامها فزعا، تقيل حيث يقيل، وتبيــت حيــث يبيــت، فيظل راكضا أمامها حتى تحاصره في هذا المكان الذي يأخــذ فــي الضيق تدريجيا حتى يتفاقم شعوره بالعزلة، ولا يكون ثمــة ســوى باب مغلق، يطرقه بإلحاح بكلتا يديه. وقبيل توقف أعــضائه تمهيــدا لإصابتها بالعطب، فإن ثمة من يجذبه من الخلف باتجاه النار:

ـــ ماذا تفعل؟

ينتبه علي جبهته التي تدمي من كثرة الارتطام بالباب الموصــد، وكبقية من أسرى تعدو باتجاه مدينة مهجورة، تتدافع الأحداث بغيــر انتظام إلي ذاكرته الممسوحة، فتختلط وتتداخل الأمــاكن والأزمنــة، ولا يدري في أي هذه الأماكن كانت البداية، ولا أيها أفــضى إلــي الآخر، فثمة من يعذبه مجاورا لمن يربت كتفه، وســيدات مهــذبات يشرن نحوه بعلامة النصر، وفتيات يقبلنه وهن يقدمن إليه باقات من ورود، يتبين كلما اقتربن منه أنهن يرتدين بلوزات قطنيــة عليهــا صورته، وأيد كثيرة تفحصه، وأصوات بلغات مختلفة تتناقش حوله، وتنقل ما يقوله، وأجهزة يتعرض لها، كــأجهزة أشــعة، وبطاقــات ورسائل تحية، وهو مقعد بكرســي متحــرك، أو بــسرير أبــيض، وأكاليل تتعلق برقبته، وخطب تلقي، ومنــصات وأقفــاص وأقنعــة موصلة باسطوانات، وصراخ وألم، وجروح وأربطــة وضــمادات وأدوية وزيارات ولجان وتقارير، وجبهة تدمي، شبه ممــسوحة، لا تكفي الرواسب العالقة بها لتكوين شيء مفهوم.

هل كانت البداية عمله المؤقت أثناء الجامعة في فترة المعــرض، كموظف استعلامات، لإرشاد العارضين والزوار؟ ومثــل أي شــاب متحمس يري الرقص فيتحرك جسده، نسي أنه يعمــل بــالمعرض، وهتف مع الغاضبين أمام جناح إسرائيل؟ كان طوله الفارع وصــوته

الجهوري وشارة العاملين بالمعرض علي صدره أكثر ما لفت انتباه السياج الأسود الكثيف من قوات الأمن المركزي، فطوقوا الجناح بالغاضبين وعزلوهم تماما. كيف تفرقت أفواج الغاضبين دون أن يدري، ومتى ضيق سياج الأمن المركزي الخناق حوله وحده وقد بُحَّ صوته وهو يهتف كمجذوب في حلقة ذكر؟ لا يعلم عن ذلك شيئا، فقط، أخذوه وحده، سلموه إلي شرطة المعرض، حيث وجه عقيد اسمه: سمير عبد ربه شتيمة بذيئة جدا له ولأمه فقط، وحين نبهه إلي أنه يعمل في الاستعلامات، شخر وسب الدين لإدارة العلاقات العامة كلها، ثم وجه له اللكمات بنفسه، وكان باب الإدارة الذي دخل منه هذا الصباح بهذه الشارة كموظف هو ذاته أول باب يلفظه. ظلوا يدحرجونه عبر الطريق حتى عمارات الضباط التي لم تسكن بعد. إلي متى ظل مرميا بين عمارات الضباط ؟ وكيف عاد إلي البلد و كيف ربتت كتفه ثم بصقت علي المعرض، في اليوم السابع غالبا سألها فقالت: ألا تعرفني؟ قال إنه غير متأكد، لكنه يعرفها، فبصقت مرة أخرى علي المعرض وقالت:

ــ خالتك نعمات.

لم يمنع بعدها فحسب من الاشتراك في العمالة المؤقتة مرة أخرى، إنما تسبب في استحداث نظام قبول آخر أكثر صرامة، يبدأ بمقابلات وأسئلة معينة ودقيقة، ثم تعليمات مشددة من شرطة المعرض ضمن برنامج مكثف لمدة أسبوعين قبل بدء المعرض، أقله عن طبيعة العمل، وأكثره تعليمات أمنية، ينتهي بتعهد كتابي من الشخص المقبول بألاَّ ينخرط في المسيرات.

ظل جسده يؤلمه، فسار إلي جوارها بطيئا وشاردا وغاضبا، لا يعرف علي وجه التحديد لكمات من التي أفقدته اتزانه. سياج الأمن

المركزي، أم العقيد سمير عبد ربه. كانت تتكلم وهو يحدق فيها كتائه، وفي اليوم السابع سألها، فقالت: أروى. صرخ بدهشة:
ــ الملكة أروى؟

دخل مجلس المدينة. كان ينهي أوراقا من إدارة حماية الأراضي، حين سمع من الراديو الصغير أمام الموظف أن السفير الإسرائيلي سيسلم اليوم أوراق اعتماده. تزامنت قراءته للافتة علي باب الإدارة مع سماعه الخبر في موجز العاشرة، فخبط المكتب بصوت عال. أمر الموظفين الذين يهملون في مهمتهم الأساسية بالقيام والتجمع في حجرة واحدة. لم يكن متأكدا من امتثالهم لهذه الدرجة أمام صراخه العالي. ساد المجلس الهرج، وحدقت العيون نحو الإدارة، التي ساد موظفيها الصمت والذهول والرعب، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال :
ــ ما قلته لكم.

متى تكهرب الجو واتصل مدير الإدارة برئيس المجلس الذي طالبه بالهدوء واتصل بالبندر؟ ومتى جاء الضباط الثلاثة الصغار لينفذوا من وسط الزحام ويسألوه عما يريد، ومتى انصرف أحدهم وجاءت هذه الرتب الكبيرة، وكيف نسي راشد ما جاء من أجله، وتذكر فجأة ما حدث بمعرض القاهرة؟ استفزته عجرفة الضباط الثلاثة التي لا تتناسب وسنهم الصغير فلم يرد علي أسئلتهم، ولم يعر اهتماما لتحذير الرتب الكبيرة بأن الناس الذين يحتجزهم ــ إن لم يكن يعرف ــ رهائن، وأنه يعرض بذلك حياتهم للخطر. لم يكن يعرف حقيقة ما ستؤول إليه الأمور، لكن إهانته في المعرض علي يد العقيد سمير عبد ربه تجسدت أمامه، فزعق قائلا إنه يعرف ما يفعله، وبدت فجأة الفرصة سانحة ــ والضباط الكبار موجودون ــ ليسبب الإحراج للجميع. لم يخطط لذلك بالتأكيد، فلم يكن في الوقت

متسع ليدرس العواقب، إنما جاءه ذلك في لحظة، كوحي أو كهاجس فقرر أن يتمادى ويتبنى هذه الفكرة، كنوع من الثأر، منتشيا كلما تفاقمت الأمور، ولا يعرف نفسه من أين أتاه هذا الإصرار علي رفض مساومات مدير الأمن، فأبوه عبد المجيد، وشيخ الناحية وأقاربه، وأهالي المحجوزين، وإمام مسجد البحر، ثم المحافظ، ثم الوزير. حذره الجميع من عواقب ما يفعل عبر الميكروفون، وهو يرفض أن يلين، حتى جاءه صوتها الذي ميزه عبر الميكروفون، ميزه علي الفور إذ كانت تبكي بصدق، نفس البكاء المكتوم يوم قابلها لأول مرة، كيف جاءوا بها ولا أحد يعلم بعلاقتهما الجديدة، بحشرجة بكائها المختنقة التي يعرفها:

ــ من أجلي .. قل لهم ماذا تريد .

تهدَّج الصوت وحده، وحنينه الواضح، هو ما جعل مقاومته تخور. كيف أتوا بها؟ تلفت حوله. لم تكن التي بيده خشبة إذن كما ظن، إنما كانت بندقية، وكان الذعر في عيون الموظفين المحتجزين قد بدأ يقل فنام منهم الكثير. من أجل البنت الرقيقة فقط لا من أجل الآخرين تكلم. طلب أن يعتذر الضابط الذي ضربه في سوق القاهرة.

ــ نعتذر لك جميعا بالنيابة عنه.

ــ ويعود السفير الذي سيتسلم عمله اليوم.

ــ ماذا تقول يا روح امك؟

ــ كما سمعتم.. ومن أجل بذاءتكم، لا بد أن يعتذر لي سمير عبد ربه شخصيا.

سمع بكاءها بالخارج والميكروفون يبتعد عن فمها وهي تختنق، وقولهم أن يأتوا بالعقيد سمير عبد ربه حالا. تذكر أنه لم ينم منذ

أول أمس، وكان الفجر قد اقترب، والموظفون الذين أكلوا ناموا، ولم يبد أنهم مرتعبون، ولم يعتذر له سمير عبد ربه عن ضربه وإهانتــه في المعرض، بل انقطع النور وبدأ ضرب الرصـــاص، فتحطمــت نوافذ الأرشيف والحمامات والحجرات. ظل الموظفون في أرضـــية الحجرة منبطحين. كان الرصاص يجيء من كل اتجاه، وكان مرهقا لا يدري أي النوافذ تتحطم من الرصاص، ومن أي النوافــذ يــدخل القناصة في هذا الظلام، ومن أين أتي كل هذا الضوء الباهر من كل النوافذ، ومن أين جاءه كل هذا الرصاص وما زال يشعر أن الــنفس يجري في صدره، وكيف مرت هذه الربع ســاعة الطويلــة، وهــل كسرت فقرتا ظهره هنا أم في المعتقل، غير أن ذاكرته التي شوشت فلم تميز بين المحامين الذين تطوعوا للدفاع عنه وأعــضاء اللجــان التي زارته، كانت ما تزال محتفظة بأن الذي كــان فــي مواجهتــه والذي دخل عليه وهو مضرج في دمائه وأكمل عدد الطلقــات فــي ظهره إلي واحد وسبعين طلقة، كان هو العقيد سمير عبد ربه.

بدا متعجبا: من أين يجيء كل هؤلاء الناس؟ لم يدرك تحديدا عم يتكلمون، أو يخص الأمر من علي أي نحــو، لكنــه كــان ســعيدا ومبتسما رغم الكرسي المتحرك والضمادات، كأنه في محكمــة فــي داخل حلم، يحضر جلسات ويغيب برغبتــه عــن جلــسات. كــان مسترخيا وهادئا أكثر من ذي قبل إلا عندما رد سمير عبد ربه على أسئلة المنصة، فإنه قاطعه وزعق وهتف ضــده وردد النـــاس فــي القاعة خلفه الهتافات، دون أن يستمع إلي تحذيرات المنــصة. عــدا ذلك كان متعاونا ينفذ الأوامر حين يذهبون به إلي الطبيب، أو يمثــل تحت لجنة من الأطباء. يفتح فمه للأدوية، ويمــد ســاعده للحقــن. تحاليل وعمليات وضمادات، ومسامير وشرائح في ساقه وكماشـــات

تعض في ظهره، وأقنعة أكسيجين وخدر لذيذ، ومطـــارق يـــسمعها بأذنه ولا يتصور أنها تعمل في جسده الذي لا يتحرك، وممرضـــات ودوسيهات و تقارير تروح وأخرى تجـــيء، وحـــين ابتـــسم أمـــام الكاميرات، ورفع إصبعيه بعلامة النصر، أتوا به إلي هنا. هل كـــان في المصحة منذ قليل؟ لا يدري. ينتابه الشك أحيانا فـــي كـــون مـــا يتوافد علي ذهنه الآن قد حدث بهذا النحو، وقـــد لا يكـــون حـــدث بالمرة، وربما يكون قد حدث في ذهنه هو فقط. يشعر أنـــه مـــا زال يفتقد السياق الذي يضم هذه الأحداث المتداخلة ويفـــسر لـــه كيـــف تجتمع في آن الدمرداش بالعباسية، وقسم ٦ جراحة عظام بقـــسم ١٠ جراحة أعصاب، وأرض المعـــارض بـــالحرم الجـــامعي ومجلـــس المدينة.

اعتاد بعد كل جلسة وبعد أن يتناول عقاقيره، وزوال الألـــم مـــن جسده والدوار من رأسه، أن يرى عبر الزجـــاج أطفـــالا كثيـــرين بحديقة واسعة يحيطون بطفلة تكبر كل يوم. يمرح الأطفـــال حتـــى ينهكهم التعب، فيرقدون علي النجيل تحت ظل الشجر. يحدق أكثـــر فيراها في وسط الحلقة تماما، مضيئة كشمس، يطير شعرها المنسدل للخلف وهي تقفز لأعلى كأنها تنط الحبل. يحدق فيرتفع ذيل فستانها الأبيض ويرتفع نهداها الصغيران في انطلاق، وفيما يخـــشى علـــي تاجها الملكي من الاهتزاز، كانت تضحك ولا يسقط. ينـــزل الـــسلم بخفة، لا علاج ولا أكل، ويخرج إلي الحديقة، فتصحو الشمس كلمـــا اقترب من الحلبة، وتنبعث الموسيقي الصاخبة، ويتعالى نقر الدفوف، حتى أن العصافير الملونة تطير بعيدا عن الـــشجرة. مـــا إن يـــدخل الحلبة حتى تنبت له أجنحة، ويشتعل الرقص ولا يسقط تاجها الملكي حتى وهم يقعون على النجيل ويلهثون من التعب ويبتسمون. تتلاقـــى

نظراتهما، فتبتسم من خوفه على سقوط تاجها الذي لا تحرص عليه، لأنه تاج غير حقيقي، وفيما يسألها عن اسمها، يجـد مـن يقيمونـه بإرهاق عن النجيل الأخضر، ينزعون أجنحته التي نبتـت ويثبتـون مكانها ذراعين ويأخذونه إلي الداخل:

ــ يكفي هذا اليوم .

كان يطرق الباب الموصد بكلتا يديه وجبهته. من خلفه صـحراء واسعة، ونار تحاصره، ويد تجذبه للخلف. كان يصر هذه المرة علي أن يعرف اسمها، وحين قالت: أروى، انفتح الباب، ولفظه بقسوة ثـم انغلق. لطشه هواء بارد، ولم يقو علي التحديق في شـمس صـباح خاو، وحيثما كان يراها دائما، لم يجدها، ولم يجد الحديقـة. حـاول الدخول، لكن الباب الذي لفظه الآن كان قد أغلق.

للنهر نصيب معلوم من الأطفال كل عام، يقتنصه عنوة، رغم كل الاحتياطات والتدابير. يعرف الجميع ذلك.

يتكرر المشهد كل عام، بحذافيره، كأنما الـدنيا لا تتغيـر، "يـا لهوي!" تخبط الأكف الصدور بلهفة، وتعلو النداءات. يتم البحث في محيط الدور والأسطح والشوارع، وينتشر الرجال والأطفال والنساء علي الشاطئ يفتشون في مياه النهر المتسع.

كان الوقت مغربا حين وقف علي محمود في طرح النهر، يغمره الماء حتى صدره، ينقذ كيزان الذرة في طشت عائم قبل أن تغمرهـا المياه، حين التفت إلي أروي التي كانت واقفة علي حجر كبير فلـم يجدها. كيف أظلمت الدنيا فجأة، وسيطرت كائنـات النهـر علـي الوضع حتى بدا صراخه ضعيفا؟ خرج الناس من حـارة الدهـشان والشدية بالمشاعل وكلوبات الجاز، يحدقون في الماء ويخوضون بين عيدان البوص والذرة، يبحثون عن أروي بفستان أبـيض وفيونكـة حمراء، في الخامسة، غافل النهر أباها وخطفها. انـدفع الـصيادون بقواربهم الصغيرة إلي وسط النهر. قضوا الليل فـي المـاء، يعلـو ضجيجهم كلما رأوا شيئا طافيا. أعادوا البحـث ــ حـين شقـشق النهار ــ بين البوص وجذور الأشجار، وتسلق آخـرون كـوبري القطار، مدلين برءوسهم في الماء العكر، محدقين في العمق، ووقف آخرون علي كوبري كفر الجزار، والتحموا علي الشواطئ بأهـالي وروره ودملو وميت الحوفيين وميت برة، وكلما اسـتخرجت جثـة تدافعوا للتعرف عليها.

هل يسير الموج بجثة أكثر من خمسة وعشرين كيلو في ليلة واحدة؟ وقف البعض علي كوبري ميت غمر، في انتظار مرور أي جثة، مقررين العودة لعدم الجدوى من البحث خلف كوبري ميت غمر وحتى كوبري المنصورة.

انحسر النهر، وتخلف عن الفيضان غرين وطمي، ورقدت مشلولة عيدان الذرة من غمر المياه، ومرغت في الطين أعواد البوص والقصب الأحمر. زالت الرهبة فخاض الناس في الطمي، ووصلت أرجلهم إلي حافته، فحدقوا في مجراه الحقيقي. عاودوا البحث في البيوت، بين الأسرة وعند الجيران، وعاود المنادون النداء. لم ترد أروى، فتيقن الجميع أن البنت ذات الفستان الأبيض والفيونكة الحمراء كانت منذورة للنهر.

للنهر نصيب معلوم من العيال، يبلعه كل عام عنوة، مهما كانت الاحتياطات والتدابير. يعرف الجميع ذلك. لكن محمد البيه جلس علي المجري الحقيقي، وعمل وِفْقاً مخمساً بآية" وانكحوهن بإذن أهلهن" ثم علقه علي سبْية الرمان، وأطلق بخور النِّد واللدان العنبري، وتلا آيات الزجر، وأخرج ملوك وخدام الآية الشريفة، ثم أقسم علي الملوك السبعة المقدسين بين يدي رب العالمين، أن ينزلوا أرواحهم العلوية، الموكلة بخدمة الملوك السبعة العلوية، لينزلوا علي السبعة ملوك الفلكية، فتنزل السبعة الفلكية علي السبعة الهوائية، والهوائية علي الرياحية، والرياحية علي الغمامية، والغمامية علي السحابية، والسحابية علي النارية، فالسحرية علي الترابية، فالأرضية فالمائية فالقرارية فالغواصة، وأن ينزل السبعة الغواصة علي من تمرد وعصا وطغى من جنود إبليس أجمعين، فيأخذوا بنواصيهم وبأفواههم مسرعين طائعين، بالله الذي لا إله إلا هو، نور علي

نور،عزيمة علي كل مارد عنيد، وشيطان مريد، من ملـــوك الجـــن والشياطين والأبالسة. ألا تعلوا عليَّ وائتونى مسلمين. ومن يعـــرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا. ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. أينما تكونوا يـــأت بكم الله جميعا. ووكل خدام القسم بأن يحضروا أروي بنت ســـكينة، إن كانت مختطفة، وإلغاء قرانها إن كانت متزوجة من ملوك الجـــن، وأن يخبروه عن مكانها حتى ولو كانت في بطون الأسماك.

ـ أنت في المرحلة الأولي.

بدأت الرحلة إذن، فكم مرحلة عليها أن تمر خــلال هــذا النفــق المظلم؟ هل يجدي إغماض العينين؟ أي المراحــل ستنــسي وأيهــا ستعلق بالذاكرة؟ في هذا النفق لقيت نهلة وعزيــزة حتفهمــا، فهــل ترجوه أن يأخذ باله منها، وأن يولــدها بالراحــة. هــل تــصارحه بمخاوفها أم تصمت؟ عيناه تطمئنانها، وليس غيره هنا سوى نخيــل يملأ الشباك بسباطات حمر، وسماء زرقاء، وقرص شمس وهــواء خريفي. أغلقت الزجاج. كأنها ممددة علي سرير تحت السماء، بعيدة عن صخب الشارع، كأنها تطوف في الفــضاء. اســتعادت كلمــات نعمات الملط وهي تشير أن تصعد لأنه فوق، ينتظرها. تتمدد بــصة نعمات وإصبعها الذي أشار لأعلي، فترفعها كريشة في الهواء.

لماذا جاءت هنا؟ كانت ترجح الولادة بالمستشفي كلمــا تــذكرت نهلة وعزيزة. أتكون نهاية الرحلة هنا؟ حاولــت أن تتجنــب رؤيــة عزيزة الصغيرة التي ولدت في مثل هذا اليــوم، فرأتهــا مــرتين، وكانت بالأسبوع تغيب عنها ولا تراها. والأجنة الصغيرة كعــصافير ملونة لم تعد تأتيها في الحلم متشبثة بعنقودها وتنقره بمناقيرها، فهــل تجتث الشجرة أم تنبت براعمها وتزدهر؟ وماذا سيأخذ الآتــي منهــا وماذا سيدع؟ استدارة الوجه؟ أم العيون التــي تحلــم ولا تواصــل التحديق؟ لمعة التوقد والحيوية أم النزق؟ تتغلب علي ما تــراه فــي الأحلام والكوابيس بأن تترك في كل مكان شيئا منها. تخرج الصور من الألبوم. تكتب التاريخ في الخلف واسمها وأكبر قدر من الوصف لمكان اللقطة، ثم تضعها في أماكن بارزة ولافتة. هل تفيــد الكتابــة

علي الجدران؟ حتى هذه فعلتها، رغم إدراكها أن كل هـذه وسـائل العابرين. قررت أن تستسلم. موتة واحدة أم موتتان؟

تناهت إليها رائحة برتقال ينضج، هل جاء راشد؟ ثمـة أحاديـث بالخارج. منتشية قامت من السرير، خرجت إلـي الـصالة بخفـة، فداهمتها الرائحة. دفعت الباب وتلفتت في أرجاء المكتب:

ـــ مع من كنت تتكلم؟

فتح عينيه في دهشة كأنه ارتبك. جلدها بنظرة مندهشة وصامتة. أدركت علي الفور أنها اقتحمت حجرة مغلقة وألقت سؤالا بطريقـة فجة. اعتذرت وهي ترجع بظهرها للخلف وتغلق الباب:

ـــ تخيلت أن راشد جاء وأنك تكلمه.

عاوده الإحساس بأن وجودها في العيادة سيحد من حريته. أنقـذها من ارتباكها وهي تتقهقر أمام نظرته الصامتة:

ـــ لا أحد.

وقعت عيناها علي كوبين من الشاي علي مكتبه، فصرخت كطفل صدق حدسه، وأشارت إلي الشاي وقد بدت أكثـر تماسـكا ومكـرا وهي تفتح الباب مرة أخرى وتبتسم:

ـــ هذا الشاي لي إذن؟

ـــ نعم..

جلست أمامه. قالت وهي تأخذ الكوب إنها كانت تستطيع أن تعده بنفسها ما دامت نازك غير موجودة، خاصة أنها كانت في حاجة إلي هذا الشاي الآن. كان كلامها ودودا كأنها تعتذر عن دفعهـا البـاب بطريقة فجة، وكان هو يشم خليطا مـن رائحـة العـود والـصندل والمسك، وتتطاير في الحجرة أبخرة لزيوت عطرية. استـشعر فـي بقية الكوب طعم الزنجبيل بينما كان وجهها الطفولي يحتل المـشهد،

وتبدو رقبتها كأنما ينقصها بالفعل عقد من لؤلؤ. تدفعه بكلامها اللطيف نحو مساحة رحبة من الهدوء والسماحة، فيبدو كأنه التقى بها فعلا في أزمنة سحيقة. كانت تشرب، فتتوارى في الخلفية نهلة عبد الواحد وعزيزة السيد، وتختفي تماما متاعب المهنة، ومناوشات الدايات وحلاقي الصحة، ووصفات الأهل والعجائز الشعبية. تشرب فيتلاشى القلق من مجيء الحالة متأخرة عن موعدها أو مبكرة جدا، ولا يشغله هاجس الأمراض المصاحبة للحمل، الظاهرة أو الدفينة التي لا يمكنه اكتشافها، وتعاوده أسئلة أخرى: لماذا لم ير الدرويش ـ ولو لمرة واحدة ـ ساكنا؟ بل سائرا بعربته وبنفس السرعة، لا يسقط من مطبات أو ملفات، ولا حتى يختل توازنه أو إيقاعه. وما الذي يجعل كل الحالات التي بها مشاكل تتساءل إن كانت موتة واحدة أم موتتان قبل أن تصر علي البقاء؟

أصرت نهلة عبد الواحد ـ بالرغم من النزيف ـ ألا تذهب إلي المستشفي، رغم اتصالها خمس مرات في يومين ولا تجده، لا في البيت ولا في العيادة. إجهاض في شهرين، وحين وصل متأخرا حتى عن موعده، كانت هنا في هذه الصالة تضحك بين نوبات الألم أسفل البطن، وبدت متعبة وهي تهم بالدخول قبله إلي حجرة المكتب كأن شيئا سيسقط منها:

ـ وراك وراك.. هتروح مني فين؟

لم يعرف أن المريضات اللاتي كن بالصالة تنازلن لها عن دورهن، والرجل الذي انتظره لأكثر من ساعتين لم يمانع أن يظل ساعة أخري كي يذهب معه ليكشف علي زوجته. لم يعرف أن التي انتظرته يومين، ورتبت كل شيء حتى تدخل، ستمضي معظم الوقت في الاستفسار عن كيفية الفحص، متنقلة بين الخجل والدهشة

والخوف وهي تجذب هدومها لتحت، أو أن باله سيطول إلى هذه الدرجة البعيدة دون أن ينفد صبره:

ـ انت هتكشف ازاي؟

ـ زي الناس.

ـ يا لهوى يا ماما!

شيء ما غير انتظارها له يومين كاملين، ووجهها الأسمر الشاحب الجميل أسفل شعرها المقصوص دفعه لأن يطيل باله، ففي هذه المدينة كلها لا يوجد سوي نهلتين اثنتين، دلوعتين وسمراوين بشعر مقصوص "ألا جرسون"، رقيقتين كالبسكويت، خفيفتي الظل، تضحكان طوب الأرض، لكنه اكتشف الآن أنهما خدعتاه، لتعذر الكشف عليهن. نهلتان كأنهما توءم، أو صورة في مرآة. لم تصدق أن تكون هناك نهلة أخرى تشبهها، وحين قال: نهلة عبد الواحد ونهلة السعيد، صرخت: صحيح يا ماما، وضحكت. أضاف أن هذه الرقة مستحبة في كل شيء إلا الكشف، وطلب منها أن تتماسك فلانت وقالت: حاضر. مد يده، فاختلطت دموعها بالضحك كأنها ستشرب دواء مرا، لكنها فتحت عينيها بدهشة ورعب نحو أصابعه التي في القفاز، ومدت ذراعيها تحمي أسفلها وجلست مرة أخرى وهي تسأل أمها:

ـ هو لازم الكشف ده يا ماما!

ـ أمال هيكشف ازاي يانهلة؟

بكت نهلة كبكاء الأطفال المرعوبين بلا دموع:

ـ ماليش دعوة .. ماهو أنا بسقط أهه .. لزومه إيه الكشف بقه.. يكتب علاج يرفع الدم ده وخلاص؟

نصف ساعة حتى تقتنع نهلة عبد الواحد ببساطة الكشف، الــذي هو مجرد فحص بإصبعين لا يستغرق أكثر من دقيقة، للتأكــد مــن التشخيص وتقييم الحالة علي نحو صحيح، ومع ذلك، كانــت تقــاوم بهلع أصابع أمها وهي ترفع الفستان الجينــز، لتظهــر كتــل الــدم المتخثر التي تشير إلي أنه إجهاض محتم، وهــي تغمــض عينيهــا وتكتم فمها بكفيها وتتشهد. نصف ساعة، لا يــدري كيــف انتقلــت بحذافيرها إلي كل فم في المدينة التي كانت في الأصل قرية؟

فحصها، فتدفق الدم كشلال.

علق الجلوكوز، وحقن أدوية انقباض الرحم، وحشاها من أســفل بالقطن، لكن الأمور كانت تتطور بسرعة متناهية، فــامتلأ الطبــق بالدم، وغرقت ملابسه. نادى زوجها:

ـــ شيل بسرعة ع المستشفي.. في حاجة مش طبيعية.

إجهاض مركون، مات ببطن نهلة منذ أكثر من شهرين. والحمل مدته أربعة أشهر علي الأقل، وهناك خطأ لا بد في حسابها للحمــل. وموت جنين لأكثر من شهرين دون أن تدري الأم هو ما يسبب كــل هذه السيولة في الدم. نزلوا السلالم. لا يمكــن إلا أن يكــون الأمــر هكذا. كان النزيف شديدا ومباغتــا. لــم يــسمح حتــى لأن يعتــذر للمريضات في الصالة، أو للرجل المنتظر لأكثر من ساعتين. كــان الوقت ضيقا فلم يجب حتى عن أسئلة نهلة أو زوجها. كان لابــد أن ينقلها بنفسه ولا يتركها لأهلها حتى لا تموت في الطريــق، إن لــم تمت وهم يتفاوضون كيف يتصرفون.

اجتاز الاستقبال وأخذ المصعد إلي العمليات. سرد لزملائــه مــا حدث باختصار، ونهلة تلتفت بإعياء تحاول أن تتبين مــن كلمــاتهم السريعة تفسيرا لما يحدث. فتحت بطنها لاستكشاف ســبب النزيــف

ومن ثم وقفه، بربط شرياني الرحم أو حتى استئصاله، وتعويض النزيف بقربتين من الدم. شتم الممرضات اللاتي مشين لبنك الدم ببطء، وعدن بعد فترة وقلن إنه لا يوجد دم. أغلب الظن أنه لم يجد وقتا لشتمهن، فأخذ التذكرة وعينة من دم نهلة وجري حتى باب المستشفي، عبر الطريق وصعد بنك الدم. أغلب الظن أنه دفع الممرضة التي كانت قد تهيأت للنوم، ثم دفع الباب، وفتح الثلاجة، وأخذ قربتين لمريضة أخرى ستجري لها جراحة باكر، وأغلب الظن أنه لم يكن هناك وقت ليقول للممرضة التي تزعق كمجنونة حتى وهو يهرول هابطا السلم: إن التي تموت في العمليات أولي بالقربتين من التي ستعمل بكرة، ولأنهما لم تكفيا نهلة، كان يجري بسيارته، معه أهلها وأقاربها الذين توافدوا إلي بنك الدم الرئيسي وبنك الجامعة، ليتخطى بطء ممرضات بلهاوات يعقن امرأة تموت عن الحياة بإصرارهن علي استكمال إجراءات شكلية، لكتابة اسم المتبرع علي كل قربة، وملء خانات الدفاتر. كان يجذب بنفسه الدم علي مسئوليته، ويجري للعمليات في المستشفي الأميري.

صارت تسيطر عليه إثر كل حالة وفاة هذه الأسئلة: لماذا مررت اليوم من هذا الشارع وتركت هذا؟ أكان لابد من العودة إلي بيتي في هذا التوقيت؟ لو أتيح له أن يعلم ما يخبئه الغيب من مجهول، لسلك البديل، أو تأخر قليلا، ليتفادى هذه المصائب؟

جاء إلي العيادة من طريق البحر، فوجد أمامه برهم بائع الجيلاتي، يخب بذهول وقد سأل عنه ولم يجده، فانحرف بسرعة في شارع الكوبري، اندفع الذين رأوه خلف برهم ليخبروه أن الطبيب جاء، لكنه كان قد أوقف سيارة واتجه بزوجته إلي المستشفي. واصطدم به صدفة محمود الأعرج وكان يبحث عن سيارة تنقل

زوجته إلي المستشفي، فاستنجد به: الحقني مراتي ولدت وبتنـــزف. كانت كتل الدم المتجلط تملأ الهدوم والفراش، فلم يتمكن من قيـــاس الضغط. رغم أنه كان يسمع الصوات، فحصها متــشبثا ببــصيص أمل، لكنه أغلق حقيبته وخرج. في الشارع انبثق الناس من الأبواب والشرفات التي فتحت في ذعر لدى عودة برهم سريعا من منتصف الطريق بنفس السيارة التي أقلته وزوجته، فلم يعد يعرف مـــن أيـــن ينبعث الصوات. آلت الحالتان إلي نفس المصير، التي ذهبـــت إلـــي المستشفي والتي لم تذهب، إلا أنه لم يعرف لمـــاذا احتـــسبت عليـــه نفيسة زوجة محمود الأعرج ولم تحسب عليه زوجة برهم الذي كان يبحث عنه، فيصرخ: لماذا مررت من هذا الشارع ؟ ولمـــاذا جئـــت في هذا التوقيت؟

كان يذرع المسافة بين المكتب والشرفة جيئة وذهابـــا. أحـــست أروي أنه مشغول. أخذت الكوبين وقامت إلي حجرتها دون حتى أن يشعر. كان يطل من الشرفة، حيث كانت وحدها نعمات جالسة علي الرصيف وسط أشيائها. تعجب مرة أخرى كيف لم يرها وهو طـــالع هذا الصباح. استعاد ما حدث في نوبتجيـــة الاســـتقبال بالمستـــشفى أمس، حين سمع صياحا وجلبة. كانت تهرول وتصرخ أمام صـــبية يخوفونها بمصطفى علوان. يسوقونها بالعصي ويضحكون، فيما هي تهذي محاولة الاحتماء بغرفة الصول سيد التي كانت مغلقة. فتح لها باب غرفة الاستقبال ليخبئها، بدا له عن قرب أن ذعرها الـــشديد لا يتناسب مع ضربهم المستهزئ، كما أن ضربا بهذه الطريقة لم يكـــن ليدفعها للاختباء منهم أسفل سلة الملابس المقلوبة، غير أنه بمجـــرد أن منع الأولاد عن باب الحجرة بذراعيه المفرودتين، دخل وعـــدل السلة فلم يجدها.

ــ علام تطل من الشرفة؟

لم ينتبه للسؤال، فقال وهو يستدير من الشرفة مندهشا: إن نعمات المجنونة وبعد ما يزيد علي عشرين سنة يبدو أنها غيــرت مكانهــا. وقبل أن يكمل استدارته وكلامه إلي أروى لم يجدها، وفوجئ بشيخه واقفا خلفه، قبل باب الشرفة بقليل، يعاتبه:

ــ حتى أنت تقول إنها مجنونة.

أدهشته المفاجأة، فأمسك بيده ليجلسه علي مكتبــه، وهــو يقــول بمودة:

ــ فقدان العقل جنون، واضطرابه مرض نفسي.

كان شيخه سيد عبد العال ما زال محدقا، كأنه يستنكر ما يقولــه. استطرد مشيرا بيده إلي البعيد بنغمة مقنعة:

ــ نعمات مجنونة يا شيخ سيد .. أودعت أكثر من مرة مستشفي النفسية.

ــ ولماذا لم تشف إذا كانت مجنونة أو مريضة؟

فاجأه السؤال، وبينما كان سيرد بأن كــل الحــالات المزمنــة لا تخف غالبا، فاجأه بسؤال آخر:

ــ ثم من قال إنها تكون في المستشفي؟

ــ رأيت بعيني أكثر من مرة شرطة النجــدة تــسلمها بخطــاب رسمي للمستشفي الذي يحجزها مدة ثم تخرج.

ــ نعم.. لكن هل تكون نعمات في المستشفي هذه المدة؟

ــ أين تكون إذن؟

كعادته حين يحجم فجأة عن جواب بعض الأسئلة، إما لبــساطتها الشديدة، أو لصعوبتها الشديدة حينما لا تتيح الظروف فهمها، يعرف

ذلك من ملامحه المستغربة أو إعراضه المفاجئ، أو طريقة أسئلته القصيرة المتتابعة حين تنتهي دائما إلي سؤال ومأزق.

أوضح لشيخه مستعينا بيديه أن ثمة حاجزا بين الوعي واللاوعي، يمنع المعلومات القديمة والمهملة في اللاشعور من الاختلاط بالمعلومات والأحداث الحديثة في الشعور، وأن هذا الحاجز هو الذي يحافظ علينا متزنين، إذ لا يسمح بمرور أحداث من هنا إلي هناك إلا في نطاق بسيط في الأحلام أثناء النوم، أو بدرجة أكبر في بعض مراحل التخدير الكلي، بينما ينهار تماما هذا الحاجز في حالات الجنون. وقد يلتئم أحيانا هذا الحاجز عند بعض المرضي بالعلاج أو بالحجز في المصحات النفسية وقد لا يلتئم بالرغم من ذلك. متنهدا وافقه شيخه تماما فيما يقول، لكن باعتبار ذلك من العلم المكتوب، أما بحسب العلم غير المكتوب، وهو الموهوب من لدن علام الغيوب، فإن نعمات ليست سوى مجذوبة تقف في دركها الخاص، الذي غيرته بالأمس، والمجاذيب لا يتركون عادة دركهم الخاص إلا بالموت، أو إذا كان ترتيبا كبيرا سيحدث في الباطن يستدعي تنقلاتهم. المجاذيب يولون ويعزلون، يؤدون وظيفة منوطة بهم في تصريف شئون دركهم، فيمنعون ملاعيب الجان، ويخففون ما يحل من بلايا وكوارث عن أهل دركهم، ألا تراهم ممتلئين بالقمل والقاذورات والعاهات. المجاذيب في الأصل محبون لم تستوعب قلوبهم الأنوار، فانجذبوا وانفصلوا عن الواقع، وفعلوا ما تراه شاذا. وقف شيخه، وقبل أن يخرج أمره أن ينزل لها رغيفا، فهي وسبعة آخرون لم يفطروا بعد، ثم انصرف.

من الشرفة، أسقط لها رغيفا، وظل يراقبها. أخذت الرغيف دون أن تنظر إلي أعلى، فأكلت نصفه وأتت كلاب سبعة مختلفة، فقسمت

بينهم نصف الرغيف سبع لقيمات، ورمت لكل كلب لقمته. كم عامـــا مر دون أن ينتبه إلي الأرغفة التي بجوارها، أو إلي الكلاب الـــسبعة التي تتردد عليها ثلاث مرات يوميا في ترتيب لا يختل؟

كان عليّ الدين خادم الملك منتظرا بجوار الحصان إلي أن تنتهي الأميرة من اللعب، وحين خلد الصبية والبنات إلي دورهم الطينية، التفتت فلم تجده ولم تجد الحصان. لم تدر إلي متى ظلت تصرخ، لكنها وجدته كما كان منتظرا بين الأشجار، يتعجب:

ــ كيف جئت؟

ــ أين الحصان؟

ــ أي حصان؟

حدقت بغضب في وجهه مستغربة:

ــ البني ذو القوائم البيضاء!

ارتبك أكثر، وبانت الحيرة علي ملامحه وهو يترك الفأس من يده:

ــ ألست أروي؟

ــ وهل نسيت اسم أميرتك أيضا يا علي الدين؟

ــ السماح أيتها الأميرة.

ــ أريد العودة.

ــ إلي أين؟

ــ إلي القصر.

عاد بها، غير أنها لم تعد من حيث أتت. داخلتها الرهبة فأوقفته في الطريق وأشارت:

ــ ما هذه الأكواخ؟

ــ دورنا!

ــ وأين الأحصنة؟

دمعت عيناه، وبلغت حيرته مداها، فقال متوسلا ألا تزعل من أجل خاطر علي محمود:

ــ ما حكاية الأحصنة، وما حكاية علي الدين هذه؟

فقالت بزهق:

ــ بل ما حكاية علي محمود هذه؟

لم تعرف لعلي محمود حكاية، فقد غافلها ومات. دهمه قطار علي كوبري الرياح التوفيقي. كأنه قصد أن يظل غامضا، حتى على هؤلاء العجائز الذين يروون كأنما يقرأون من كتاب مفتوح، ويحكون بسهولة منقطعة النظير، ويردون كل شيء إلي أصله، فالسوايدة الذين هم في غاية الجاه بدأوا ببيع النداغة وسرحوا بالملبن، أما الفنجرية، فمكروه الدار ساكنها، جاءوا من شربين يعصبون أعينهم بالمناديل، ويسرحون بالدفوف أمام الأبواب وقد علقوا الأخراج بأكتافهم وأنشدوا المدائح النبوية، ثم عملوا مسحراتية وطبالين ثم أصبحوا ملاكا لهذه الأبراج علي الكورنيش وعند النفق وأمام محطة القطار. والملايجة في الأصل ساسة للخيول، والبوهية بدأوا عبيدا عند محمد أفندي علوان، ثم أخذهم ابنه مصطفى أنفارا بعد ذلك في مصنع الطوب، ولا يمكن لذريتهما الكبيرة أن تحول دون نسيان أصولهما المنتهية إلي مليج منوفية. حتى الهراوي الذي ورَّث ذريته ــ إلي جوار الحلاقة ــ العيون الخضر والبشرة البيضاء واللت والعجن في الكلام عمال علي بطال، واقتناء النساء، لم يختلفوا علي أن بذرته نبتت في كفر محمود منوفية. أما الدهاشنة فالعدد في الليمون، والعكايشة فعديمو الأصل كخبز القرافة كل واحد من شكل، والحبايشة فتنابلة لا ينجزون شيئا، وإلي أن تتكحل العورة يكون السوق قد خرب.

عند علي محمود، والكلام يتجمد علي ألسنة العجـــائز، يـــصيبهم البكم. لا أحد ينفي ولا أحد يؤكد. كأنه لم يكن. علي محمود هكـــذا، لا جد ولا أعمام ولا أخوة. ما إن تقترب من الموضوع، ولـــو دون قصد، حتى تمط الأم بوزها وتمتعض، ويتساءل خالها عن الـــداعي لنبش الماضي.

أحضرت الكتب، وقرأت بنهم، شغوفة بحكايات الماضـــي، عـــن الهزة التي أصابت العائلات في البلاد المصرية، إبان حفـــر القنـــاة، فتبدلت مواطنها، وتفرق الأخوة وتقطعت بينهم السبل، هروبـــا مـــن السخرة، والموت الحتمي وبطش السلطة. حتى الحكايات الشعبية لم تغفل تقصيها وتأويلها وفهمها.

لكنها كانت ترتطم دائما بجدار مصمت.

ـ لسه حد بيقراها؟

كأنه لا يكلمه. لم ينظر نحوه. يرتب الجرائد. يخرج الكتب من الكشك ويرصها علي فرشة الكتب. يناول الزبائن جرائدهم باليد التي بها النقود الورقية، ويعطيهم الباقي من علبة نعناع فارغة عملة معدنية دون مراجعة كأنما يوزع صدقة. تتنقل عيناه بشكل خاطف بين أذرع متداخلة بنقود من فئات مختلفة، خلفها وجوه متزاحمة ومتعجلة: مسائي يا حسني! أخبار! جمهورية! مسا.. لسه! وفد.. خلص!

كانت ذراع راشد ممدودة بالنقود ما تزال، وهو ينطق في الزحام بضجر اسم جريدته، حتى خيل إليه من نظرة حسني الحادة والمركزة أنه يقصده. كانت نظرات الواقفين ذوي الأذرع الممتدة تشي أيضا بأن النبرة الخاطفة والمتسائلة والمستنكرة موجهة إليه، فهل كان في طلبه لهذه الجريدة ما يدعو للغرابة؟

ـ لسه حد بيقراها يا أستاذ؟

نطقها حسني هذه المرة وهو يضغط حروفها بأسنانه، متعجبا بيده التي بها النقود الورقية والأخرى التي بها جريدة يومية في اتجاهها إلي ذراع ممتدة، حتى التفت المتزاحمون نحوه باستغراب، فهبطت ذراعه وخرج تلقائيا من الزحام. هل غاب طويلا؟ أم أغلقت الجريدة؟

خذله الرد المفاجئ، كمن يسأل عن صديق أوحشه، فيفاجأ بأنه مات منذ فترة طويلة، وأنه وحده الذي لا يعلم. خاف أن يسأل عن أبيه أو عن زوجته أروي، فيصطدم بشيء مفاجئ. انتابه الحزن

لغياب جريدته التي أدخلته ذات يوم عوالم ساحرة، فعرف أمل دنقل وتوقف طويلا أمام "لا تصالح، وأقوال جديدة عن حـــرب البـــسوس" وأحب من خلالها نجيب ســرور، وســعد الله ونــوس، وميخائيــل رومان، ونجم والشيخ إمام ومحمد منير ومحمد حمام، وســمع لأول مرة عن لومومبا وجيفارا، واسبارتكوس. من خلالها كانت البدايــة. كان مغمضا ففتحت عينيه علي مسرح الغرفة، ثم مــسرح الــسلام، ومتحف الفن الحديث. نبهته مبكرا إلي أنه إزاء واقــع بكــر لكنــه متخلف وراكد، يرتع فيه كطحلب مجاذيب وسحرة. بعد ذلك ذهــب وحده، وبمحض إرادته، وطلب أن ينضم إليهم، ليحرك هذا السكون، ويهيل التراب بقسوة على كل ما يعوق أو يناقض طموحه الجــارف نحو التقدم، ونحو الغد المشرق، ونحو الكرامة والعزة. كان شــغوفا بحماسهم، وانتشارهم بين العمال والطلاب، وتمردهم الــدائم علــى الواقع، وكراهيتهم للعدو، غير أنه تساءل عن بذورهم: لماذا لم تنبت كما كان يتوقع في هذه التربة؟ وهل كان المعتقــد الــديني الراســخ والمتغلغل وحده الذي حال دون نمو هذه النبتــة وترعرعهــا؟ أيــن يكمن الخطأ؟ في البذرة أم في التربــة أم فــيمن قــاموا بزراعتهــا ورعايتها؟

كانت الضجة قد خفتت عن حسني الذي ناداه، وقال له: إنها لــم تعد تجيء منذ فترة، لأن أحدا لم يعد يطلبها. هز رأسه فــي أســف وأخذ يقلب في الجرائد الموجودة، يومية وأسبوعية وحزبية ومستقلة، يقرأ شعاراتها. تجول في المجلات الفنية والثقافيــة. تفقــد عنــاوين الكتب الكثيرة المفروشة متعجبا من انتشار هذه العنــاوين الغريبــة علي هذا النحو. أتكون العودة إلي النقيض بذلك العنف؟ كــان علــي حق إذن حين صارح رؤساءه في التنظيم، بانزعاجه مــن نظــرتهم

إلي الدين، وطالبهم بدافع المحبة والغيرة أن يبحثـوا عـن منطقـة للالتقاء، وأن يحوروا فكرهم ليتواءم وطبيعة مجتمع ريفـي بـسيط يعرفه، يؤمن أكثر بالآخرة، ويفضل ــ إن كان ثمة خسارة لابد منها ــ أن تكون في الدنيا. ريفيون بهذا الشكل كانوا جديرين فـي رأيـه بأن يتحور أي مذهب ليناسبهم. تساءل:

ــ أيهما أكثر مرونة، تطويع النظرية أم تطويع المجتمع؟

اقتنع أكثر أنهم يراهنون علي المجتمعات العمالية حين رآهم أقل مرونة تجاه التجمعات الريفية، وحين تأكد له أن التجربة التي ينقلون عنها لم تعتمد في الأصل علي الفلاحين كما اعتمدت علي العمـال، فتيقن أنه لن يحدث التقاء، بل حدث التنافر، فلم يكـن لـدي أهلـه الريفيين ما يضطرهم لأن يقبلوا المذهب هكذا.

اختار جريدة يومية. قرأ تاريخ اليوم قبل أن يتـصفح أوراقهـا. استغرب حين طالعته من بين الصفحات أسماء ذات تاريخ نـضالي وفكري بارز، كانت مقالاتهم وجبة أساسية في جريدتـه المفـضلة. عاد إلي الصفحة الأولي ليتأكد من اسم الجريدة والتاريخ، ثـم فـر الصفحات الداخلية، وتوقف طويلا أمام أسماء أولئك الـذين كـانوا يغالون في التشدد، ويعتبرون أن المذهب مطروح، يؤخـذ كلـه أو يترك كله، ولا مجال من ثَمَّ لمذهب توفيقي يرضي أطفـال اليـسار وضعفاءهم.

ظل واقفا بين أقرانه في التنظيم، وأولئك الـريفيين البـسطاء. لا إلي هؤلاء ولا إلي هؤلاء. لم يتقبل أفكارهم الجامحـة كاملـة، وإن تزعزع يقينه، وتسرب الشك إليه مـن المـسلمات. فـي منتـصف المسافة تماما ــ تلك المنطقة الوهمية التي كان يحاول الثبات عليهـا دون انزلاق ــ نجا من القتل بأعجوبة، وأفاق علي فقرتين محطمتين

وذاكرة مشوشة، ليشهد في الجريدة اليومية التي في يده، والتـــي لـــم تتزحزح قيد أنملة باتجاه مذهبهم، كيف ركب المتشددون باقتدار آخر موجة قبل أن يغرقوا.

لعمارة أندراوز شهرة ميدان، لا يخطئها أحد في المدينة أو القرى المحيطة. من عندها يمكن الوصول لأي منطقة في المدينة، فليس علي المرء سوى أن يقف بجوارها، ثم يحدد الاتجاه الذي سيسلكه كما وصف له، كي يصل إلي هدفه مهما بعد، طالما كانت عمارة أندراوز نقطة الانطلاق. يأتيها مرضي المدينة بالحناطير، والقرويون علي الدواب. يرافقهم مرشدون ومتطوعون كانوا في الأصل مرضى ثم خفوا علي يديه، يتطلعون بوجوههم إلي الأدوار العليا، يتفحصون لافتة غير مرئية لأندراوز حال لونها، علي شرفة متربة لم تفتح قط، قبل أن يصعدوا ثلاثة سلالم في الذاكرة حتى العيادة بالدور الثالث، فيما لا ينتبهون للافتته الكبيرة علي نفس الشرفة، كأنها لافتة وهمية، بل يطلقون عليها عمارة أندراوز. كبير أطباء المستشفي الأميري. طبيب المركز. ترخيص رقم ٦. حكومة الملك المعظم. إذا كانت الشمس وعوامل التعرية محت اللافتة، فمن أين قرأ هذه الديباجة؟ أيكون هو الدكتور الذي في عيادة أندراوز ويتحقق بكامله الحلم الذي قصه علي أبيهِ منذ ثلاث وعشرين سنة، وينجح في العثور علي ورثة الورثة، ليوقعوا له العقد ويضيفوا إليها حجرة ثالثة كان أندراوز يستريح فيها ويتناول غداءه، فيخصصها للولادة.

في طريقه إلي ورثة أندراوز بالضاهر، مسترشدا بفكرة حسين عبد الوهاب الدولة ومعلوماته عن أندراوز التي كان يأخذها منه في طريقه بالحنطور من المحطة حتى العيادة، وانتظاره بالحنطور حتى ينزل عواد التمرجي ليحمل الحقيبة، كان يزيل العنكبوت والغبار

عن العمارة التي يرجع طرازها إلي أواخر القــرن التاســع عــشر، ويدهن في ذهنه حوائطها، ويعيد أيقوناتها وأســودها البــارزة إلــي الواجهة، ويستكمل في رأسه حلياتها الجميلة ومقرنصاتها المتهدمــة، فتبدو شاهقة وقديمة. رافقه حسين الدولة، منتهزا الفرصة فيمــا لــو نجحت الصفقة أن يدفع إليه بابنته نازك لتعمل معه ممرضــة. فــي مدخل كوبري الرياح التوفيقي، أطل حسين بجــسمه مــن الزجــاج المفتوح وسب أبا أم الدرويش ابن القحبة حين زنق سيارة الــدكتور، واحتك بجانبها الأمامي دون أن يتوقف أو يلتفــت، وهــو يتطــوح والدف في يده والعرق ينثال من جسمه. في إشارة مــرور غمــرة، وبينما كان يعدد مزايا ابنته نازك الشاطرة والتــي تقــرأ وتكتــب، صرخ حسين فجأة حين رأى الدرويش مارقا بالكارو والولد باللجــام والدف في يده. كان الدرويش غارقا في عرقه كأنه صاعد من نهر. صرخ حسين الدولة ثم سكت تماما، وظل مبحلقا بعينيه يخــبط كفــا بكف ولا ينطق كأنه أخرس.

كانت العمارة من أربعة طوابق، أربعة أمتار ونــصف للطــابق، تطل بشبابيك مستطيلة وشرفات صغيرة علي مركز الشرطة وعمــر أفندي من جهة، وعلي الإعدادية القديمة من جهة ثانية، وعلي النيــل ومحلج العطار من الجهة الثالثة. هنا كان أندراوز يناوش الفلاحــين حين يراهم ينتعلون البلغ والكنادر وقد توارت قلــيلا الــشقوق مــن أقدامهم، فيذكرهم بأيام الكوليرا وأيام البودرة:

ـ إوعى يا فلاح منك له عشان مــا نــضفتوا شــوية ولبــستوا ساعات وخلعتوا الطواقي الليف تكونوا نسيتوا البودرة والبخاخة؟

يحبون الحكيم أندراوز أبا عن جد. يخرجون من عنده أصــحاء كأن لم يكن بهم مرض. ينزلون من عنده وهم يــرددون مناوشــاته

ووصاياه، كأنهم تركوا المرض عند أندراوز، الذي أراد أن يرحمهم من البلهارسيا، فوزع عليهم أحذية برقاب طويلة يستخدمونها في الري، غير أنه ظل يصرخ في شرفته حين رآهم يرتدونها في مشاويرهم إلي المدينة وقد قصوا رقابها، بينما ظلوا ينزلون حقولهم كما اعتادوا حفاة، إلي أن مات معترفا بأن الذي هزمه لم يكن سوى هذه القرى المتناثرة كرُبَي صغيرة بين المزارع الفسيحة بلونها المترب ومآذنها الصغيرة، لا تربطها غير مدقات عليها دواب بطيئة وسائرون مطمئنون. تلك القرى التي كانت تلوح له داكنة من شرفته، كأنها نبتت هي الأخرى من الأرض، قبل أن تضعف عيناه، وقبل أن تحجبها عنه العمارات العالية، فلم يعد لفتح الشرفة معنى.

وقع العقد مع ورثة الورثة. أبناء أخت أندراوز وإخوته الثلاثة. عرف حسينُ أصغرَهم، إذ كان أحد الذين أنزلوا أندراوز في مثواه الأخير، في ترب المدينة. تذكره حسين، وقال الرجل: إنها كانت المرة الأولي والأخيرة التي ذهب فيها إلي الأرياف، والدنيا تغيرت لا شك. وليس من المعلومات التي استقاها حسين أو أبوه أو جده حسين الدولة، إنما من أرميا ابن أخته علما ـ حسين والطبيب ـ أن خاله أندراوز لم يتزوج، وأنه ظل يبيت لخمسين عاما مع أمه، ولما ماتت ظل وحده، تزوره أخته في هذا المنزل الأثري في الضاهر، والذي آل بالضرورة إلي أخته وأولادها. كانوا لا يعلمون شيئا عن أندراوز، وكانوا عمليين بما يكفي لأن يأخذوا مقدم الإيجار، وأن يتفقوا جميعا علي أن يصلهم الإيجار شهريا، وحين عرض عليهم فكرة الحجرة المغلقة، لم يكن لديهم علم، فأضافوها إلي العقد في بند خاص ورفعوا الإيجار.

أضاءت نازك العيادة، فبدت العمارة كما رآها تماما في الحلـــم. حتى الحجرة المغلقة والتي أمام سطوة أندراوز أجل فتحها أكثر مـــن مرة. كان يخيل إليه أنه سيجده راقدا بالداخل ممددا، ينظر إليه حالما يفتح الباب، ليسأله بحسم إن كانت لديه القدرة أن يفعـــل فـــي هـــذا المكان لخمسين عاما أخرى مثلما فعل، وراوده هاجس بأنها حجـــرة تسكنها الأشباح بعد أن رفض حسين عبد الوهاب أن يفـــتح حجـــرة مغلقة لم يدخلها أحد سوى أندراوز، حتى عـــواد التمرجـــي. فـــتح الحجرة فرآها كما في الحلم، سرير مرتب كأنه بانتظـــار أنـــدراوز ليرقد فيه، أو كأنه نهض لتوه منه، بجواره مكتـــب صـــغير عليـــه مصباح بقاعدة وكتب ومراجع مرتبة بعناية ونظارة للقراءة ومقلمة، وفي الجانب الآخر مائدة صغيرة بكرسي واحـــد وطبقـــان وســـكين وشوكة وملعقة وفوطة، تحتها سجلات مرصوصة لمرضـــاه، ولـــم يكن علي الجدران سوى مشجب بدون ملابس.

لم تكن نازك حريصة وهي تنفض الغبار عن الـــشبابيك، فتقـــافز صدرها المثقل إلي أعلي وإلي أسفل خلف ثوبها القديم دون أن تعي. كان في حركته البندولية حين تنحني أو تشب علي أصابعها وترمـــي بجسدها علي الشباك لتطول المناطق العالية، يلح في تذكيره بـــصدر عائشة. تملكه القلق، فخرج إلي بسطة السلم وهو يأمرها بأن تـــنفض العيادة بعد ذلك قبل مجيئه، وينفض الغبار عن أنفه كأنـــه يختنـــق. فتحت الشباك فتدفق الهواء البحـــري. شـــبابيك للتهويـــة وأخـــري للإضاءة، تفوق لمبات الكهرباء البائسة بأســـلاكها البـــارزة خـــارج الحائط وبقع الجبس المبرقشة. وكما لم تكن العيـــادة بحاجـــة إلـــي إضاءة حين تفتح الشبابيك، فإنه لم تكن هناك حاجة أيضا إلي لافتـــة لن يقرأها الناس رغم كبرها علي الشرفة فيما يقرأون لافتة أندراوز

التي محيت. فقد فتحت عيادة أندراوز مرة أخرى، ليس مهما اسم من الذي فتحها، وكما أطلقوا علي العمارة كلها عمارة أندراوز، ظلوا لسبع سنوات يقولون عنه: الدكتور الذي في عيادة أندراوز، ولسبع سنوات ظلت نازك حسين تجلس في الصالة الواسعة خلف المكتب الصغير ــ بصدرها الذي لا يذكره بعائشة إلا عندما تنفض الغبار ــ تستقبل المريضات وتدخلهن إليه في حجرة الكشف.

قبل نهاية المنحدر، أنهك الحصان، وبرك كما تبرك الجمال.

لم تتصور أن تجري الأمور بهذه السرعة، فينزل الغريب عن حصانه، وتنهرها زوجة خالها، فتبتعد لتراقب الغريب وهو يهمس في أذن خالها متوددا، ويرد خالها بهذه السرعة:

ـ نجهزها ونوصلها لحد عندك.

كانت تتطلع بحب وسط بنات خالها الخمس إلي حصان الغريب البني الواقف وحده أمام الفناء، وحين وضع الفنجان فارغا وشدد علي خالها في ود:

ـ طلباتك.

فكرر خالها وهو يتنهد كمن ألقي حملا ثقيلا عن كاهله:

ـ لا شيء .. ألبِّسها وأوصِّلها لحد عندك.

فاتنتر الحصان وقال الغريب:

ـ نريدها كما هي.

فضحك خالها مقدرا وقال:

ـ إذن قومي مع عمك يا أروى.

كان الحصان يعبث بفمه في الحشائش ويهز أذنيه حين قالت بفرح:

ـ هل آن الأوان؟

ـ آن.

امتطت خلفه صهوة الحصان، فانفرد الطريق منحدرا وملتويا وسط مرتفعات من أشجار برتقال وليمون ونارنج وسرو، ولاح القصر في آخر الأفق، بسوره الضخم العتيق، بأبراجه العشرة

وأبوابه السبعة. سار الحصان ولم يغادر الوقت الـضحي، والقـصر يقترب ويختفي مع التواءات الطريـق. رأت بوابـة أروي سـدت بالطوب منذ خرجت منها فلم يجتازها أحد بعدها. باب كبير أعـلاه برجان وسارية عليها ــ ما تزال ــ التفاحات الذهبية الثلاث تخطف الأبصار كلما سطعت عليها شمس الضحى. خلـف الـسور يطـل القصر مشرقا ومنيرا، بعقوده وسقوفه وأعمدته الرخاميـة وأفنيتـه وقبابه الفخمة. نظرت خلفها فرأت الطرق المتدرجة بين الأشـجار، وبدا أنهما في قمة الربوة، حين رأت النهر صـغيرا وبعيـدا ورأت الدرجات الحجرية الثلاثمائة وخمسة وسـتين تنـزل إليـه حيـث الحمامات الملكية بأربعة عقود متكاملة في صـفين، يظللهـا سـقف مقبي ذو ثلاث بوائك، تتخلله كوات للنور، حيث يدفع النهر الصغير ماءه أسفل قنطرة حجرية ذات عقدين صافيا إلي الحمامـات التـي تحتها أسراب للتصفية في مجري آخر. بكت فقال الغريـب: لمـاذا تبكين؟ قالت كانت هنا مملكة وثمة ملك وعرش وأميرة، وكان يقـيم بين هذه الجدران سلاطين ورجال يوجهون مصائر رعية، ومن أحد هذه الأبواب خرجْتُ يوما ولم أعد.

بُعَيد باب أروي، وقبل نهاية المنحدر أنهك الحصان، وبرك كمـا تبرك الجمال. فقالت: لم نصل بعد!. قال الغريب إننـا هنـا بـشكل مؤقت. حدقت في وجهه كثيرا فضحك، وقال: هـل عرفتنـي؟ رن صوته القديم في أذنها، فصرخت في فرح: عبد المجيـد الـصعلوك مضحك الملوك! فقال متنهدا: أخيرا! استريحي قليلا أيتهـا الأميـرة أروي. سألته عن عليٍّ الدين فقال: خادم الملك؟ فقبلته وقالت: نعـم! فقال: الله يرحم الجميع! كانت تعرف أن الحصان البني ذي القـوائم البيضاء سيعرف طريقه وحده نحو بهو الريحان وسيقف علي بركـة

الماء الرائق الأخضر التي تتوسـطه. تظللهـا أشـجار الريحـان، وسيمرق إلي بهو البركة، ثم إلي بقية الأجنحة الملكية حيـث كانـت تلهو أمام بهو السفراء، حيث يعقد مجلس العرش، وسـيدخل سـاحة السرو وقاعة الأختين اللتين بهما رخامتـان أرضـيتان متماثلتـان، ومتساويتان وفريدتان في ضخامة الحجم، وسيدخل الحصان الجميل فناء الأسود بأعمدته الرخامية الرشيقة المائة وأربعة وعشرين التـي تحمل أربع مشرفيات ، ذات عقود بأربع قبـاب متقابلـة ومتماثلـة الصنع، وستتركه لتلهو في النافورة التي بوسط الفناء يحمل حوضها المرمري الضخم اثنا عشر أسدا من رخام أبيض في دائرة، وتجوس داخل الأبهاء الملوكية الفخمة، وتقرأ فـي أركانهـا سـورة الملـك منقوشة بكاملها.

قال : نعم ..سيحدث كل هذا.. لكن بعد أن يستريح الحصان.

برك الحصان كجمل أمام دار واسعة، خرج من فنائها فتى تسبقه رائحة البرتقال، استقبلها بانحناءة مؤدبة، وقبل يدها وقـال بخجـل شديد:

ــ مرحبا بالملكة أروي.

وتقدمها إلي الداخل في بهجة. أفزعها أن تري فقرتين محطمتين من ظهره وآثار الدماء تنزف من إحدى وسبعين فتحـة. صـرخت منبهرة: أنت لم تمت إذن؟ فالتفت مبتسما وهز رأسه:

ــ مرحبا بالملكة أروى.

توقفت أمام باب الفناء، خيرته بـين أن يخبرهـا باسـمه، أو لا تدخل. قال: وهل يهم الاسم في هذه الأوقـات؟ قالـت: نعـم. قـال بخجل: راشد عبد المجيد. قالت: متى عدت؟ قال: حالا. قالت: هـل التأمت جراحك؟ فقال إن جراح جسده التأمت، لكن جروح روحه لم

تندمل بعد. قالت: خبرني أيها العائد عن الموت. قال وهو ينظر في الأرض دون أن يرفع بصره: لا يخبر عن الموت بحق من نجا، إنما يخبر عنه بحق الموتى أنفسهم. كان بالفناء صور لأبي زيد وسيوف متنوعة وقلاع وحصون قديمة ومراكب في وسط أمواج عاتية وعلي البوابة من الداخل عبارة: ملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب.

إلي أن يستريح الحصان، ظلت أروي مع عبد المجيد الصعلوك مضحك الملوك. تعد الطعام وتملأ الجوزة بالماء وتجهز الحجر، وتنظف الفناء وحجرة عبد المجيد وباقي البيت بسرعة، ثم تعنى باقي الوقت بالحصان المتعب. كان راشد يجيء ويغيب دون موعد، وصار غيابه أكثر من حضوره، وكانت كلما امتطت الحصان، تفاجأ به خلفها، يحيط صدرها بيديه، ويضغط ليمنعها من السقوط، حتى أنها تشعر من شدة الضغط بمواضع الواحد والسبعين طلقة، فتقول: متى خرجت؟ فلا يرد. تبكي وتذهب إلي عبد المجيد وتسأله: أين راشد؟ فلا يبدو أنه يسمعها. تبكي فيربت كتفها، يلاعبها ويناوشها لكنها لا تضحك. تعيد السؤال، فيمد كفه ويطلب أن تشمه، ويسألها دون أن ينتظر إجابة إن كانت ليلة أمس ليلة خمسة عشرة؟ فقد قابله ابن عمه حسن أثناء عودته من عند خالها متأخرا ليلة أمس، وأمام جزيرة علما وسط النهر والمزروعة بأشجار الأرو والفاكهة انتابه الخوف الشديد وكاد يجري هلعا حين سمع المعدية تشق الماء في الظلام، ولم يثبت إلا بعد أن سمع صوت قرطاس ابن عمه مناديا: إيه اللي أخرك عند أبو النسب كده؟

لم تؤنسه في هذه الليلة التي كالكحل سوى كلمات قرطاس وصوته الأجش المتدفق، يسأله عن راشد، وعن العروسة والأرض.

لم يمتعض سوى من خشونة كف قرطاس الزائدة حين اعتصر كفه بأصابعه الخشنة التي تتلوى كأنها تستعد أن تسلمه شيئا، وحين آلمته الخشونة الزائدة سحبها، لكن الشيء اللزج كان قد استقر في وسط كفه، نتر كفه في الظلام عدة مرات فابتعد قرطاس وهو يقهقه ويضرط في الظلام، مخلفا في كف عبد المجيد اليمنى تلك الرائحة القذرة التي لن تزول بالغسيل وستظل في كفه حتى يموت. قالت: أين راشد؟ نظر إلي كفه مرة أخرى بقرف وقال: إن ابن القحبة شخ في كفه انتقاما مما حدث له ليلة العيد الكبير، وكان أصدقاؤه قد أنبوه لأنه لا يصلي، وكان يتهرب منهم في كل مرة ويراوغ، وحين ضيقوا عليه الخناق صرح أخيرا بأنه ليس أقل من الحاج احسن أو محمد الشربيني أو محمود أبو غز، فهو يمتلك ستة قراريط في طرح النهر، ومثلهم لديه ولد وحيد، فلماذا هذه التفرقة؟ وأقسم ألاّ يدخل الجامع حتى يعطيه ربه بقرة بلبنها ومشنة عيش ممتلئة، وحتى لا يفاتحوه مرة أخرى فإنه حدد هذه المهلة بالعيد الكبير. في منتصف ليلة العيد، استيقظ على خوار بقرة في الفناء وتعثر في مشنة العيش، فخرج من تلقاء نفسه إلي جامع البحر، يزعق في الظلام ليوقظ الناس قائلا: إن كل من لم يصلِّ يكون كلبا وابن كلب. علي باب جامع البحر المغلق جلس في انتظار الفجر، ومن وسط الظلام جاءه النداء:

ـــ يا أبا راشد.. اسجد!

فقال: ومن أنت؟ قال: ألا تعرفني؟ أنا من أعطيتك البقرة ومشنة العيش. قال: وما يدريني؟ قال: اطلب ما تشاء أجبك، ففكر وقال إنه لن يسجد له حتى ينفذ ما يطلبه منه، فقال: لك ما تريد، فخرج إلي الخلاء وعاد بقطعة طين طرية، وقال اسجد لهذا الشيء أولا فأسجد

لك بعد ذلك، وسجد الصوت ثم طالبه بعد ذلك بالسجود تنفيذا لما اتفقا عليه، فقال وهو يضحك ويصرخ ويزعق في الشارع حتى خرج الناس:

ـ سجدت لشختي وعايزني أسجد لك.. ها ها.. يا أخي دا بعدك.

ولما عاد، لم يجد البقرة، ولا المشنة، فبذر القراريط الستة بالمكرونة، متسائلا: لماذا يزرع البرسيم إذا لم يكن لديه بقرة؟

كان يعرف أنهم لن يتركوه هكذا يفوت بفعلته. يتوقع ملاعيبهم القذرة، فيحبطها حين يجاريهم متظاهرا بأنه يصدق أن الجنية المنتظرة بالجرة الممتلئة علي حافة الرياح أسفل الكوبري هي آمنة أم حبيش، وأنها تنتظر من يرفعها علي رأسها: إيدك يا خويا. فيقترب ويرفعها، وقبل أن تستقر الجرة علي رأسها يشعل عود الثقاب في وجهها، فتقفز في الرياح.

وحين طرق الحاج احسن بابه في منتصف الليل كما اتفقا ليشويا أكلة ذرة قال من تحت الغطاء: من؟

ـ الحاج احسن، يالله يا سيدي اتأخرنا.

فقام، دس البلغة في قدمه، ونطر الشال علي رأسه وتوجها إلي الساحل، ففاجأهما الفيضان. بدا أن الحاج احسن كان قد عمل حسابه، فخاض في الماء حتى صدره دافعا أمامه طشت الصاج، يقطع الكيزان من العيدان المغمورة ويرميها فيه. لم يكن العجب في أن الحاج احسن يسبقه، أو يخوض في الماء كأنه يمشي في الناشف، وينزع قشر الكيزان، ويشعل النار بسرعة، إنما كان العجب حين ازدرد الحاج احسن وحده خمسة وعشرين كوزا من الذرة وهو جالس مربع الساقين. عادا يضحكان ثم دخل ولم يكد يغمض عينيه حتى بدأ النقر علي الباب، قال: من؟

ـ الحاج احسن ..يالله يا سي عبْمجيد النهار طلــع .. راحــت علينا نومة..

انتبه إلي أنه ربما كان يحلم، أو أن الحاج احسن قد جُنَّ بالتأكيد، وخرج مكذبا نفسه: لعلني كنت أحلم. ذهب معه، ورأي تماما ما رآه، وظلا أمام الباب يضحكان، فلم ينم هذه الليلة مطلقا، وقال في نفسه إنه بالتأكيد لم يكن يحلم، وأنه في إحدى هاتين المرتين كان العفريت الذي يأكل معه دون أن ينتبه إلي خشونة كفه أو قدمه التي تشبه حافر الماعز، وفي الأخرى كان الحاج احسن، وبينما كان يخمن أيهما الذي كان في المرة الأولي، ومن كان في الثانية، طُرق باب الفناء بلهفة. رد من أسفل الحرام: من؟ :

ـ الحاج احسن.. يالله يا حبيبي .. علي اتفاقنا؟

ـ لحظة واحدة يا حاج.

وبدلا من أن يتلو في وجهه سورة الناس، خلع البلغة وعاصها خراء، وناول العفريت الواقف بالباب ست عشرة بلغة متتالية، فسقط الحاج احسن من المفاجأة وظل يصرخ حتى خرج الناس، وظل حتى مماته مخاصما عبد المجيد، ولم يصدق ما قاله أو يقبل له اعتذارا.

ضحكت حتى دمعت عيناها. لم يكن يضحك الملك غيره. طرد الملك المهرجين والبهلوانات ومروضي الوحوش والحواة ولاعبي الثلاث ورقات واحتفظ به. وكان وحده القادر على انتزاع الضحكة من أعماق الملك. مسحت عينيها وقالت: أين راشد؟ فأقسم أن عفاريت اليوم أولاد قحبة، كثيرا ما يعتلون الأسطح والشبابيك، يتسمعون الأخبار، ويقذفون بالطوب والحجارة في الشوارع وأفنية البيوت ليتسلوا بإثارة الرعب والفزع في قلوب بني آدم والعبث بهم

والسخرية منهم. عفاريت أوسخ من الكلاب الضالة، يشعرون لكثرتهم بالملل، يتراهنون علي إيقاع الأذى بالإنسان، أو حمله علي سلوك معين، يخوفون الصبية والعائدين ليلا، يسكنون دورا معينة ويطردون أصحابها لتظل مهجورة ويوقعون بين الأصدقاء والأزواج. ستقولين: واشمعنى انت اللي العفاريت بتعاكسك؟ سؤال جميل في محله، فأنا لم أقل إنهم جاءوا بناء علي رغبتي، فبعد أن استلموا راشد في البداية وركبوه، أصابوه بالأمراض، كان يتشنج ويبرطم ويتخشب جسده، وأوصلوه أن يمسك سكينا ليذبحني، هذا الولد الوديع الذي ظللنا نبيت معه في هذا الفناء، أنا والجيران، نقرأ عليه القرآن، نكتفه ونضربه فلا نقدر عليه ونستغرب من أين يأتي ولد في ثانية إعدادي بكل هذه العافية، ولم ينفع معهم شيء حتى شققت جلبابي للذيل في الظلام وصرخت فيهم:

ــ سيبوا الولد الغلبان ده لحاله. ده عيل ميعرفش حاجة .. تعالولي أنا.. أنا قدامكم أهه .. أنا جتتي نجسه وشقيت طوقي للذيل.

ظل الناس يهدئونه وهو يشتم العفاريت أولاد ستين وسخة ويهددهم إن لم يتركوا الولد لحاله، حتى أفاق الولد. أفاق تماما كأن لم يكن به مرض، وكأنهم تركوه وتفرغوا له، فصار يعرف كيف يعاملهم.

كان الحصان البني ذو القوائم البيضاء وحيدا أمام الباب، وهو يمسد شعرها علي حجره وهي تغالب النوم. بكت قبل أن يواصل الحكي كأنها تحلم:

ــ أريد أن أعود إلي القصر.

ــ بعد أن يستريح الحصان.

لم يتخيل قط أن الأفكار والنظريات يمكن أن تموت هكــذا مــرة واحدة، أو تهوي كما تسقط العمارات، فتتناثر محتوياتها وزخارفهــا علي قارعة الطريق، وتلقى علي الأرصفة ــ بــلا قيمــة ــ مئــات الكتب والمجلات والنشرات دون أن يلتفت إليها أحد، وكان مجــرد حيازة أحدها يكفل لمن يقتنيه التشريد والاعتقال. كان راشــد يكلــم نفسه في شارع المديرية كلما وخزه التساؤل المتهكم لبائع الجرائــد. كأنه كان نائما فلم يشعر متى صــارت هــذه الكتــب دواء منتهــي الصلاحية، وكيف أصبحت الأفكار التي يعتنقها تمائم سُــحِبَ منهــا السر، وكأن ما مر كله أصبح فجأة في ذمة التاريخ.

منذ انخرط في صفوف هذا التنظيم وهو يعلــم أنهــم مناضــلون واثقون، لا يخططون لكسب أرض جديدة، بقدر ما كانوا يقــاومون، يذودون عن مواقفهم. رغم تقهقرهم فإن صلابتهم في الدفاع هي مــا شدته إليهم، فتخلى بسرعة عن أفكاره الأولية الصبيانية، وتمرد على قهر الأسرة والتخلف وسطوة مشايخ الكتاب، ووجد ملاذه في الكتب، حيث كل شيء قابل للنقاش والفهم والتقييم، لكن الذي لــم يعرفــه ــ إلا الآن ــ أنهم كانوا في مرحلة الأفول، وأنه كــان يــسير دون أن يدرى عكس التاريخ، وأن بائع الجرائد كان أنفذ منه بصيرة وأكثــر منه قدرة علي قراءة المستقبل.

ــ لسه حد بيقراها؟

هل كان وحده الذي يصحو مبكرا ليشتري جريدته المفضلة قبــل أن تنفد أو تصادر من الأسواق؟ من غيرها كــان يكــشف الأخبــار السرية والصفقات المشبوهة؟ ويفضح من يتعــدى علــي مــصالح

الفقراء والطبقات الدنيا، ويثير الرأي العام ضد الاستبداد والكبت وتقييد الحريات، ويشير إلي التزييف المتعمد في وسائل الإعلام، وفضح استفتاءات صورية وانتخابات هزيلة، بمانشيتات عنيفة وجريئة، فهل كان مهما كم كانت توزع؟ مئات الوطنيين فصلوا واعتقلوا، فصار الاعتقال وساما يهون عليه سنوات الأذى والسجن. هل كانت هناك صحيفة أخرى تقول مثل ذلك؟ قل يا بائع الجرائد.

لم يرد حسنى، إنما فتح الجرائد متنهدا بشكل عشوائي. أي صفحة تريد؟ لست في حاجة إلي البحث، فالمناضلون الذين اعتقلوا ــ كما تقول ــ متناثرين علي كل الصفحات، وهذا كلامهم، بلا لون ولا طعم ولا رائحة. ركبوا الموجة في آخر لحظة، فعن لسان من تتكلم الآن؟

انخرس تماما، وقد رأى بأم رأسه المفكرين الكبار يزينون الصفحات الأولى للجرائد الأخرى كزخارف عمارة منهارة. للغربال الجديد شدة. اليوم يضعونهم في الصفحة الأولي، وغدا يصير الأمر عاديا فيدخلونهم إلي الصفحات الداخلية والأعمدة المختبئة. إنه الاحتواء، أو قل الإغراء.

ــ ولا حتى هذا.. إنه ركوب الموجة في اللحظات الأخيرة قبل الغرق.

ــ استسلام؟

ــ شيء كهذا.

بدا أنه لا يعرف الاتجاهات. ريشة في مهب الريح. لا شيء يملكه سوى التنقل بين المعتقل والمستشفيات النفسية، والفقرتان المحطمتان إثر واحد وسبعين طلقة، ورفوف من الكتب تدوس مثلها الأقدام علي الأرصفة عن نظريات راحت ولن تعود كأمس الدابر.

بدا الجميع كأنهم يعرفون اتجاهاتهم، يسيرون بآليـــة إلـــي المـــساجد والمدارس والأسواق والمصالح، حتى المتسكعون علـــي الأرصـــفة وشاطئ النيل والجالسون على المقاهي. وحده الذي يتخبط وهو يرى رموزه قد ارتموا في أحضان نظام لم يتزحزح قيد أنملة في اتجاه ما يعتقدون. أغلق حسنى الجرائد وخفف عنه:

ــ الزمن تغير، والشعارات تغيرت، اعذرهم فعن ماذا يـــدافعون الآن؟

كان يسير صامتا في شارع المديرية، حزينـــا مـــن استـــسلامهم المجاني الذي لم يكن يرى مبررا حقيقيا له، بينما كـــان أمـــامهم أن يموتوا جميعا وهم يدافعون عن شـــعاراتهم ولا يظهـــرون كفئـــران مذعورة تهرع إلي الموجة الأخيرة. كأنه لا يريـــد أن يـــرى، كـــان يخبئ عينيه بيديه، فتسقط أوراق الجريدة اليومية غير المفضلة مـــن بين أصابعه وهو يتواري عن مارة يحدقون فيـــه بدهـــشة، متغلبـــا كمحارب مهزوم علي عاهة فقرتيه قبل أن يدخل عمارة أندراوز.

ملك الموت ــ لا شك ــ الذي كان يرابط أمام باب حجرة عبد المجيد لثلاث ليال متصلة، حين تكور لصق الحائط فزعا في سريره، يحدق في فتحة الباب. لم تخفت خلال هذه المدة أصوات البط والطيور علي الأسطح، وانتابت الأبقار العائدة العصبية كلما مرت أمام الباب فتجفل بقوائمها في فزع كأن أحدا يسوقها من الخلف، وامتنعت العجول الرضيعة والحملان من المرور، وانتظمت الكلاب المتوجسة تعوي في طوق حول البيت، ثم انتقل العواء إلي طوق أوسع كأنه الصدى، فشمل الحي كله من السكة الحديد إلي النيل كأنما لذئاب، وبدا أن دار عبد المجيد ذات البوابة الخشبية الكبيرة والفناء قد صارت مركزا لدوائر الصخب، بل غرفته تحديدا، حيث يتكور ببصر لا يتحول عن فتحة الباب، حيث كان ملك الموت ــ لا شك ــ ينتظر إتمام مهمته. لم تتوقف عن الترجيع دوائر الصخب المتداخلة إلا بعد أن انفجرت صرخة أروى الملتاعة متبوعة بصوت ثيابها تتمزق، وخروج الطبيب الذي في عيادة أندراوز بحقيبته التي أكمل غلقها في الشارع.

لم يكن غريبا علي مدينة كانت في الأصل قرية، تعشق التفكه والسخرية، ألاَّ تتذكر من عبد المجيد سوى موتته الغريبة تلك، وزراعته قراريطه الستة بالمكرونة وإحاطة حدودها بالشيكولاتة كل عام، ومقاسمته زجاجة الكينا مع حمار فرّ من قسوة صاحبه، دون أن تشير ــ ولو من طرف خفي ــ إلي أمنيته القديمة جدا بأكل المكرونة ما بقي من حياته والتحلية بالشيكولاتة، أو تُلَمِّح إلي يمين الطلاق الذي رماه علي المقهى بأن يشرب مناصفة زجاجة الكينا مع

أول من يمر من هذا الطريق، حتى وإن كانت أم راشد ميتة من أحد عشر عاما.

لم يكن غريبا عليهم تذكر ذلك رغم ندرة هذه النوبات التي تأتيه من آن لآخر، ثم تتركه طوال العام سليما ومبتهجا، يناوش في الرائح والآتى من أجل سيجارة أو كوب شاي. يجلسه الناس ويفتحون له الأبواب حتى يبدأ حكاياته الملتفة والمتشابكة، بدأب كأنه يفك بكرة خيط بنظام ورويَّة، عن عفاريت هذه الأيام أولاد القحبة، التي لا تجد سبيلا لتضييع وقتها والتسلية إلا بالاستهزاء والسخرية من بني آدم بعمل المقالب والضراط بعد ذلك وملء الليل بالضحك المريب، ولأن نجمه خفيف فإنهم يختارونه، يعملون فيه المقلب دون أن يكتشف أنهم عفاريت إلا بعد أن يسمعهم يبرطعون كحمير مقمصة، يضرطون ويضحكون بصوت عال. يروي الحكايات فيذكرها الناس وينساها هو بمجرد انتهائه منها، تلك الحكايات التي غالبا ما تتزامن نهاياتها مع نهايات كوب الشاي أو العصير، أو الوجبة التي يأكلها. عندها يقذف ــ وهو يتألم أو يدمع ــ الطبق أو الكوب الفارغ في الحائط بقسوة ليتحطم ثم يمشي بعد ذلك وديعا وهادئا في سلام شديد كأن شيئا لم يحدث، فيحدق الناس بذهول في عبد المجيد، ويلتمسون له العذر منذ أقامت العفاريت في جسد ولده راشد، وأصابته بالتشنجات، لا تتركه إلا حين يسقط علي الأرض كجذع شجرة، يرغو فمه. سنوات والعفاريت تعبث بالولد دون رادع حتى أنه لم يبق أمامه إلا أن يقف على رأس ابنه المتشنج، ويشق طوقه للذيل ويزعق لاطما خديه ولاعنا أولئك العفاريت، عارضا عليهم ــ لو كانوا عفاريت محترمين ــ ألاَّ يستضعفوا هذا الصبي الغلبان الوحداني، ويدخلوا جسده هو. هدّأهُ الناس الذين تجمعوا

حوله، وطلبوا منه أن يوحد الله، فتهدج صوته وهو يشير إلي الـدم الذي انبثق من جانب فم ضناه الحيلة ذي العينين الثابتتين:
ــ يرضي مين ده؟
كأنما خافت منه العفاريت أو قبلت العرض. تركت جسد راشد ليخف تماما كأن لم يكن به مرض ودخلت جسده هو فلبسته، وظل عبد المجيد يكلمهم وحده، ويشرب معهم الشاي، ويرد عليهم التحية، ويضع لهم الأكل بجوار الحائط، ويعزم أحيانا عليهم بالسجائر، وكانوا يخبرونه بما يعرفون. رآهم بوضوح بعد ذلك، فأخبروه بأن راشد سيدخل كلية الاقتصاد، وأنه سيصير مشهورا. كان سعيدا بأنه يراهم الآن علي حقيقتهم أكثر من ذي قبل. حدَّث راشد بذلك أكثر من مرة فلم يلق بالا لذلك، إلا بعد أن كثرت وشوشته له بأن ثمة كنزا مخبأ له، دون أن يدرك أنه في كل مرة كان يشير إلي مكان مختلف، يحدده ويخرج بالفأس ويحفر وحين لا يجد شيئا يصرخ:
ــ آه يا أولاد الأبالسة!
وحدها من بين الحكايات التي كان يرويها عبد المجيد، ظلت حكاية الكنز ثابتة تماما كلما حكاها. لا يحيد عنها كما في الحكايات السابقة. تبدو ملامح الصدق والذهول في آن مسيطرة عليه، كأنه يروي من واقع رؤية حقيقية، غير أن التباين بين الروايات المختلفة لا يحدث سوى عند تحديد مكان الكنز، فيعود لتعليقه المتكرر إذا نبهه أحد:
ــ ما هم أولاد الأبالسة نقلوه.

أمام لجنة امتحان الماجستير قال إن تسع قرب من الدم الطـــازج، وعمليتين إحداهما لربط شرياني الرحم، والثانية لاستئصاله لم تكـــن كافية، وإن نهلة عبد الواحد ظلت تنزف من أسفل، ومن جرح البطن دما سائلا كالماء.

ـ تشخيصك المبدئي والنهائي؟

ـ دي آي سي. سيولة الدم الناتجة عن إجهاض مركون تجاوز الشهرين.

في الثامنة صباحا، ماتت نهلة عبد الواحد في العناية المركـــزة أمامه وحده، وهي تعاتبه: قلت لك هموت، صـــدقني.. أنـــا حاســـة صدقني، وكان يطمئنها كطفلة ويشير بعينه إلي شاشـــة المونيتـــور: ضغطك زي الفل أهه إنتي خوافة ليه؟ قول والنبي.. أمال أنا حاســـة بكدة ليه؟ خمس ساعات في العناية وحدهما منذ أفاقت من التخـــدير، لم يتركها لحظة، حتى ولو ليوضح التشخيص لزوجها الـــذي انتقـــل من أمام غرفة العمليات ليجلس أمام غرفة العناية المركزة، ليكـــرر في ذهول حين يتلقى النبأ: يا خراب بيتك يا ممدوح.

ـ هل كانت الأمور ستختلف لو عرفـــت بـــأمر هـــذه الـــسيولة بالتحاليل؟

ـ بالنسبة لي كنت سأعلم التشخيص فقط، ومـــن ثـــم لـــم أكـــن لأتورط، وبالنسبة لنهلة فالأمر سيان، لأن السيولة قد نخـــرت كـــل عوامل التجلط في دمها، الذي ظل منضغطا خلف فلينة أزيحت فقـــط أثناء الفحص.

ـ هل كان من الممكن تجنب ما حدث؟

ـ نعم.. بالمتابعة الدورية والموجات فوق الصوتية من بداية الحمل.

أخذ ممدوح وأقاربه جانبا منه حين أفاقوا من الصدمة، معتبرين أنه المتسبب فيما حدث، إذ لم تحن آن ذاك الفرصة ليشرح لهم ما حدث علي هذا النحو المفصل، ولم يكن من ثم مجديا بعد ذلك أن ينقل ما حدث داخل غرفة العمليات والعناية المركزة لكل من خرجوا من العيادة بعد نزوله مبللا بالدم ونهلة محمولة علي ذراعي ممدوح، أو للمستيقظين في الصباح علي النبأ، أو للمشيعين، والجالسين في سرادقات العزاء، ولمن سيترددن بعد ذلك علي العيادة حتى هذه الجالسة أمامه، ومن سيصدقه لو قال إن عشر دقائق أخري كانت كافية لأن يندفع الدم وحده من رحم نهلة المصممة علي الموت ـ حتى لو لم يفحصها ـ كزجاجة مضغوطة انتزع فلينها وحده بقوة الدفع؟

الشيء المؤكد أن نهلة ماتت، وأن ما سيقوله غير مجد، وأنه ما لم يرح رأسه قليلا فإنها ستنفجر، فما سيسوقه من حجج وتبريرات لن يصمد طويلا في مدينة كانت في الأصل قرية تستشري فيها الحواديت، وتستحيل فيها الأرحام بيوتا صغيرة وغامضة، ترتع بداخلها مثل عقلة الإصبع أجنة صغيرة، بريئة ونشيطة، وأنه ـ أمام حقيقة الموت ـ لو ظل ينشد ما حدث على ربابة، فإنه لن يستطيع أن ينفي عن نفسه فكرة أنه مفرق الجماعات وهادم اللذات، الذي أنهى الحدوتة مبكرا، بلا تبات ولا نبات، وسبحان من له الدوام.

لم يسأله أعضاء اللجنة عن عدد الحالات التي ولّدَهُن وعشن، واللاتي بلغن ألفا وثلاثمائة وخمسا وثلاثين حالة. لم تذكر اللجنة، كما لم يذكر الناس في هذه المدينة التي تشبه جسدا ممددا، هادئا

وراكدا، سوي نهلة والتي لم يكن يوجد منها في هذه المدينـــة ســوي اثنتين، فولد بها بعد ذلك سبعمائة ونهلة واحدة. هل ماتت نهلة فعلا؟ وهل ماتت عزيزة التي بلغ عدد عُقَل الإصبع اللاتي تسمين باســمها في ست سنوات مئة وخمسا وستين عزيزة؟ كما تحيــا الحواديــت، ستظل حكاية نهلة وعزيزة علي شــواطئ فــرع دميــاط والريــاح التوفيقي والترع والجنابيات، تجوب المدينة وقراها وتعــود معبقــة بالحكايات الصغيرة، والمزيد من النهلات الصغيرات والعزيزات.

ـ ما الأخبار عندك؟

تجلى الشيخ سيد هذه المرة متكئا علي حافة المكتب، كأنه بنفس الجلباب الأبيض الذي كان به في الكوخ.

ـ الحمد لله.

ـ وماذا تري أمامك؟

فهم أنه يقصد حالة الولادة. رد بارتياح وهدوء:

ـ ربنا معها، تتألم وحالتها مزعجة، لكنني مطمئن.

ـ شهدت الكون وشهدت المكوِّن عنده وبأثره. ها أنت تستشرف.

وشت نبرة صوته هذه المرة بشيء من الرضا. كان يسمع الصوت واضحا، لا لبس فيه، وكان بإمكانه تحديد مكانه، متكئا علي حافة المكتب أمامه، بيده نفس المسبحة، يتمتم بالأوراد ما بين الكلمات، تشجع وطلب أخيرا:

ـ أريد أن أراك!

يراني بعيني من رآنيَ في الرؤى ويسمعني سمعي وتلك إرادتي

غمر الحجرة نور مبهر، وبدت شمس الضحى كأنها واقفة خلف زجاج الشرفة المغلق. رأى كل شيء مختلفا: سرير الفحص والبارافان، دولاب الأدوية، الميزان، سطح المكتب وجهاز الضغط والسماعة، وجهاز السونار. لم يدر إن كان السبب في حالة الصفاء والبهجة، أنه لم يعتد المجيء إلي العيادة في هذا التوقيت أم لتجليه بوجهه المضيء هناك علي حافة المكتب، واتكائه بذقنه الحليق ـ كما كان يجلس دائما ـ علي مرفقيه في جلبابه الأبيض، حيث

أمارات الصحة وحيث لا كبد ولا استـــسقاء ولا توهـــان؟ داهمـــه شعور بأنه سيتركه بشكل مفاجئ كما في المرة الأولي، فخطر له أن يسأله هذه المرة: فيم طلبه أول أمس؟ لكنه سمعه كمن يجرِّب صوتَه في البحث عن مقام، ينشد بصوت رقيق وهادئ وهو ينقر المكتـــب بأصابع كفه الممدودة بمسبحة:

لأفطم منكم من أتمَّ رضاعةً وأورث سري للذي فيه صبغتي

وأنفخ في روع المريد فينتقي جواهر علم الأولين بنفخـــتي

أعاده الصوت الشجي المنبعث من أركان حجرة الكـــشف إلـــي عوالمه القديمة، كأنه في حضرة. صوت واضح، لكنه غيـــر محـــدد الاتجاه. لا تحت ولا فوق ولا جنب. ينبعث من الـــداخل، أم يجـــيء من الخارج؟ صحو أم منام؟ كأنه ينشد بين طبقتـــين، كـــان يتمايـــل فتصفو همهماته وترق. انتقل إلي وسط الحجرة بعد أن ضبط بنقراته الإيقاع وعثر علي المقام. عنت له الأسئلة وهو يحدق فـــي مركـــز الحجرة: كيف يعاين شيخه هكذا بعد أن مات؟ وحين خطـــر لـــه أن يقوم إلي منتصف الغرفة ليعانقه، ترامى صوته الشجي واضحا مـــن أركان العيادة كلها:

أروح وأغدو في الغيوب مسافرا محط رحال السالكين براحتي

أدرك تماما أنه ليس نائما ولا يحلم، وأن بدنه هو الذي يرتعد من الشجن علي الكرسي خلف المكتب الخشبي الكبير في العيادة الكائنة في عمارة أندراوز، بالدور الثالث، في حجرة الكشف ذات الـــشرفة مغلقة الزجاج، حيث امرأة في انتظار المخاض كان يبحث منذ قليـــل في الدولاب الذي بحجرتها عن الورق الذي أمامـــه الآن، وأدرك أن الواقف في وسط الحجرة ينشد هذه الأبيات ليس سوى شيخه الـــذي أومأ له أن يكتب عنه. منحه الإذن فأمسك بالقلم ليكتب كل ما يخطر

بسمعه. لم يكن وحده صدى الصوت المتردد في أرجاء الغرفة مغلقة الزجاج، ولا الإيقاع المنضبط، ولا هذا المد التلقائي المريح للقافية كل ما جذب انتباهه إلي أن ما يلقى علي مسامعه الآن تائية طويلة، إنما تصريحه وكشفه عما لديه من منح وفيوضات، وتفاخره صراحة بما لم يفصح في حياته عنه. ظل يكتب حتى تصبب عرقا، فلم يدر كم ورقة كتب، وكم قلما غير. أومأ له فأراح يده وفرقع أصابعه. جال بخاطره الدرويش المداح، وتساءل لماذا مر هنا اليوم؟

ــ تقصد باهي؟

ــ لا أعرف اسمه.

اسمه باهي. يدور هكذا منشدا، علي عربته بحصان، واقفا كأنه يستعرض. مسكين باهي. جرى حصانه في الصحراء، فخرج خلفه، ومر علي جماعة من أهل الله. السلام عليكم. رد السبعة سلامه في صوت واحد. تفضل. فتفضل القهوة، وما إن شرب باهي فنجان القهوة حتى كان كلبهم الذي أومأوا إليه قد انطلق في الخلاء الفسيح وأتي له بالحصان. عاد بالحصان ليجد امرأته تزوجت بأخيه الأصغر، وأبناءه كبروا وتقاسموا تركته، وقد غاب عنهم ثماني سنوات. ولأن ما غابه لم يتعد شربه فنجان القهوة، فإنه عاد من حيث أتي، واضعا عربة خلف الحصان ولم يتبعه سوى ولده الأصغر، وظل ينشد هكذا.

ــ وإلي متى يظل ينشد؟

ــ إلي أن ينتهي من السبعين ألف بيت من المدائح النبوية.

ــ ومتى حفظها؟

ــ من أهل الله أثناء شربه القهوة.

ــ وهل يكفي عمره لإنشاد سبعين ألف بيت؟

ـ الزمن لدى باهي واقف لا يتحرك.

كان باهي كما هو منذ اكثر من عشرين عاما، نفس الجلباب، تحته القميص الأبيض، وعلي رقبته اللاسة الخضراء، والدف في يديه أو يد ابنه الذي يمسك باللجام. لأكثر من عشرين عاما والحصان والولد وباهي كما هم. كأنهم لا يكبرون.

ـ وأين يذهب الدرويش باهي؟

ـ اسمه باهي السائح، وهي مرتبة من مراتب المجاذيب، ووظيفة في دولة الباطن، يجيء صباحا من دسوق، ويصلي الظهر في طنطا والعصر في سيدنا الحسين.

ـ كيف عرفت كل هذا وأنت لم تقابله؟

استأنف الإنشاد، بصوت جميل ورائق كأنه يبتسم:

ولست بناء عن مريديَ لحظةً وإنّ مريدي من أراد إرادتي

وإن صواعً المُلْك أعرف سره وأكشف أسرار الخبا والسريقة

أشاهد محبوبي وأَشهد فضله وغُمَّ علي غيري بغيب الغمامة

كم مر من الوقت حتى يكتب تائية من أربعمائة وعشرين بيتا؟ وإلي متى سيكتب؟ لم ينظم شيخه فيما يعلم بيتا واحدا من الشعر. كان ينشد بين الطبقات ـ في الحضرة فقط ـ قصائد من سيدي أبي العينين، ابن الفارض، وسيدي عبد الرحيم القناوي. يصبغها بجمال صوته فيحصلون علي معان جديدة لم تكن بها من قبل. يتساءل الإخوان عما يفعله إلقاؤه العذب بهذه القصائد، فيقول بتواضع:

ـ إنما هي قصائد نورانية، يهبط أصحابها علي الحضرة، فيمنحونها هذا البهاء.. شي لله يا سيدي ابراهيم، شي لله يا سيدي عبد الرحيم.

عرَّفه قديما في المصلي علي النهر أن الله الذي خلق كل شـــيء بقوة اسمه هو، خلق الأشياء الطيبة في الوقت الطيب المناسب وخلق الأشياء الضارة في الوقت النحس غير المناسب، وخلق لكل شـــيء ملاكا أوكل إليه الإشراف عليه، وأن الاســم يمثــل قــوة خاصـــة، ويرتبط بصاحبه بقوة روحية، خاصة أسماء الله الحسنى، وأن لكـــل منها وقتا خاصا به يجب استخدامه فيه، فكما لكــل مخلــوق مــلاك موكل به فإن لكل اسم خادما ولكل آية خادمــا ولكــل حــرف مــن حروف الأبجدية، وخادما لكل يوم وخادما معينا لكل ســاعة ولكــل فصل من فصول السنة ولكل نوع من الريـــاح ولكــل اتجــاه مــن الاتجاهات الأربعة، وهؤلاء الخدام يفعلون ما يطلب منهم على نحــو مشابه لعملية الخلق الأولى بإذن وتفويض من رب العالمين. أمـــلاه منشدا:

فلو قلتُ باسم الله للنـــار أطفها ولو قلت باسم الله للسحب أعطت

ولو قلـــت باسم الله للميْت أحيه ولو قلت باسم الله للعيس أطـــت

ولو قلت باسم الله للشمس كُوِّرت ولو قلت باسم الله للنجـــم أهوت

وإن قلـــوب المشركين بربـــهم إذا قــلت باســم الله لله حـــنَّت

لم يره مفاخرا، أو صريحا في الكشف هكذا عما منحه الله، بـــل كان يردد دائما: اللهم اجعلنـــا أتقيـــاء أخفيـــاء، حتـــى المـــشاهدات والخواطر التي حدثته بها نفسه، كان يكتفي ــ ليعرِّفَه أنه يعـــرف ــ بالتلميح بإيماءة، بنقرة في الرأس، أو بكلمة عابرة تحتمل أكثر مـــن معنى. أمعن النظر فيما كتب وسأله:

ــ ألا تخشى الفتنة يا شيخي؟

ــ بالانتقال تزول الفتنة والغرور.

في ساعة الحائط لم يكن الوقت قد تجاوز ربع الساعة، ضــرب رأسه بيده، ونظر إلي الأوراق أمامه، أربعمائة واثنــين وعــشرين بيتا. كتب في نهاية التائية: أنزلت هذه القــصيدة فــي الإثنــين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢، فنقره في رأسه وأوقفه وأملاه البيت المتمم للتائية:

ألا فخذوا الآحاد عني معنعنا أصحُّ روايات الحديث روايتي

أنشد قصيدة أخرى، وبعد أن كتبها، أمسك بــالقلم وخــط خطــا طوليا علي حروف الكلمات الأولي من أبيات القــصيدة فقــرأ اســم شيخه (سيد الحسيني عبد المتعال). خط آخر فوق الحروف الأولــي من شطراتها الثانية فكونت(رضي الله عنهم ورضوا عنــه). وضــع القلم وظل يخبط رأسه، كأنه يريد أن ينتبه، فقد كان يــدرك أن مــا يملى عليه مرعب وخطير، وأنه في حاجة إلي إشارة واحدة حــسية، نقرة أو خبطة مؤلمة تؤكد أن ما به لــيس هــواجس ولا هــلاوس سمعية ولا أحلاماً، بعدها ستبلغ سعادته منتهاها، لكن شــيخه غــادر الحجرة معاتبا ولائما:

لسانُ إلهيٍّ يخبِّر صــادقا وعزمُ إلهيٍّ إذا شئت عُــذْ به

فنطقُ إلهيٍّ عن اللَّغو مُبعَدٌ وصمتُ إلهيٍّ عن اللغو قلْ به

وعينُ إلهيٍّ لدى الله نورُها وبيتُ إلهيٍّ إذا شئت طُــفْ به

فانتبه معتذرا في رجاء:

ــ أعرف يا شيخي.. لكني أريد أن أراك حقيقة.

انتزعه صراخ أروي المريع والمفاجئ، دخل عليها فرآها ترتعــد فزعة. قال: مالك؟ فهدأ روعها أول ما رأته. قالت باسترخاء كأنهــا لم تكن التي تصرخ :

ــ حسبت أنك تركتني ونزلت.

مثل آلاف الولادات الطبيعية سوف تلد أروى، وكعشرات الولادات الطبيعية التي يعقبها النزيف، ستنزف أروى، وخلافا لغالبية حالات النزيف بعد الولادة، سيكون نزيفا حادا، وسوف لا يستجيب لكل العقارات القابضة للرحم، وسيتمادى الرحم في الارتخاء ليستمر النزيف، وسيفشل في إيقافه تدليك الرحم من أسفل البطن، أو عصره بين قبضتين إحداهما من تحت والأخرى أسفل البطن، فيحشو المهبل بالقطن ويعطي المزيد من المحاليل بالوريد، جلوكوز وملح، علي أمل التوقف، فلا يضطر إلي فتح البطن واستئصال الرحم. وسوف تنتبه نسبيا أروي، كلما انقبض الرحم قليلا وقل الدم النازف من أسفل، فيراوده الأمل الكبير في توقف النزيف بهذه المحاولات الأولية، وستحتفظ بالرحم، فلا يحكم عليها بالعقم النهائي. يزعق:

ــ أروى.. عاملة إيه؟

ــ هه؟.. آه..

يراوده الأمل، كلما سمع استجابة أو حركة. أمبولان آخران من الميثرجين. لا استجابة. سيفعل الخطوات المتبعة لعلاج نزيف ما بعد الولادة. يحفظها كاسمه. امتحن فيها في البكالوريوس وسألته عنها أول أمس لجنة الماجستير. يحقن من أسفل البطن الرحم نفسه بالإنزابروست، آخر ما توصل إليه الطب في العقارات القابضة للرحم، هكذا قال أمام اللجنة أمس، لكنه يرى الآن بعينيه أنه لا يفعل شيئا. يا لطيف اللطف. لماذا لا يفيد الإنزابروست؟ ولماذا أمام الموقف تأخذ الأمور منحي مختلفا؟ الله يخرب بيت اللجنة، علي بيت

شركة الأدوية، علي بيت مندوبيها وجيش الأســاتذة الــساذج الــذي يروج لهذا العقار بأنه الحل السحري لوقف النزيف. لطفك يــا رب. أمل ينهار أمام عينيه بعد أن تجدد. هل يحقنها بالكالسيوم الذي قــال عنه أستاذ الفسيولوجي أنه يحسن وظائف العضلة ويــساعدها علــي الانقباض. قال ذلك في بحث طويل بمؤتمر، وركز خصوصا، وعقد آمالا كبيرة علي فائدة هذا الكالسيوم المتوافر والرخيص فــي وقــف نزيف بعد الولادة الناتج عن ارتخاء عضلة الرحم. حقيقة فسيولوجية بسيطة، تناقلها أطباء الولادة الذين يتعرضون لمواقف مماثلة. حقيقة درسها الجميع في ثانية طب وغابت عنهم. صارت حقنة الكالــسيوم هي القشة التي يتعلق بها الغريق. هل ذكر أستاذ الفــسيولوجي كــم بالمائة من حالات النزيف بعد الولادة تلــك التــي تتحــسن بحقــن الكالسيوم في الوريد؟ نسبة ضئيلة. لا يهم. ألا يمكن أن تكون أروي منهم؟ رفع الحشو، فتدفق الدم عنيفا. أمل تجدد في لحظة وانهار في لحظة. كيف سيشرح لوكيل النيابة كل هذا التسلسل، والحكــم علــي تجربة بعد انتهائها، يعد حكما علي تجربة أخرى، من قبل شــخص آخر هادئ الأعصاب يجري بروفة، يضع في يقينه ــ ولــو بعقلــه الباطن ــ النهاية التي عرفها مسبقا، وهي موت المريضة، فيتــضح الخطأ تماما كهدف تليفزيوني يعاد ببطء.

قاطعه وكيل النيابة. لم يعطه الفرصة ليتكلم. وكيل النيابة الــذي يعرفه منذ كان يسكن أمامه في مبني "ح" بالمدينة الجامعية، ويلتقيان وجها لوجه أكثر من مرة في نفس اليوم. لم يصر اليوم علي تجاهله وعدم معرفته فقط، إنما بالغ في إذلاله وإهانته، فاختــار الــصمت. وكرد فعل متعجرف علي سكوته، ســيرفض الاعتــراف باســمه، وسيأمره بخلع هدومه، ليتعرف عليه فيما يكتب الــسكرتير خلفــه:

للجاني جسد طويل، وشعر أكرت، برونزي في حـوالي الخامـسة والثلاثين، به شامة أيمن العنق، كثيف شعر الصدر والبطن، يـدعي أن اسمه فلانا، ويدعي مهنة طبيب أمراض نساء. سـيزيح البطاقـة وكارنيه مزاولة المهنة جانبا ويكمل الإملاء، دون أن ينظـر نحـوه: تحال البطاقة والكارنيه وشهادات التخرج للأدلـة الجنائيـة، وتبلـغ السلطات الصحية والنقابـة الفرعيـة للأطبـاء بمراجعـة العيـادة وتراخيصها، ويبصم المتهم وتعرض صحيفة الحالة الجنائيـة . لـن يتنازل عن صمته ما دام وكيل النيابة متخذا ذلك الموقف العـدائي، وسوف يمنع دموعه أن تنحدر ويضع يديه علي صدره بنفس الهدوء والصمت القاتل، إلي أن يضايقه أن يلبس ملابسه، فينهره:

ــ مين اللي قالك البس؟

ساعتها سيود لو ينتهي الموقف كما أنهاه أبـوه علـي طريقتـه، فيقفل التحقيق دون إجابة حتى عن السؤال الأول، حين فـتح خطـأ طريق المخازن، بدلا من الطريق الطوالي، أمام قطار زفتي بسرعة قيامه المتزايدة فخرج عن قضبانه، لتنقلب ثـلاث عربـات خلـف الجرار الذي حطم سور السكة الحديد. كان مـا حـدث كافيـا لأن يتسمر في مكانه وينزله عساكر الشرطة من البلـوك علـي الـسلم الحديدي مرتعدا في ذهول من يخطئ لأول مرة قبل انتهـاء خدمتـه النظيفة بأسبوع. انتفض أمام وكيل النيابة كـأن بـه بـرد شـديد، واصطكت أسنانه، ولم يكد يلمس جـسده الكرسـي حتـى انـتفض لشخطة وكيل النيابة، ثم تهاوي مرة أخرى من يـد الـصول علـي الكرسي. نهره ثانية ليقف، فكف عن الارتعاد ولم يقف.

أعاد خلع الملابس مرة أخرى دون أن ينظر له. لـم يكـن قـد ارتداها إلا بعد أن صمت فترة طويلة أوحت له بأنه سيملي أوامـره

وسيقفل المحضر. أكمل الخلع، وتأكد وكيل النيابة من امتثاله، فقال متنهدا:

ــ إلبس هدومك!

سنتان في مبني "ح". الدور الرابع. الغرفة ٣٠٢ تقابل الغرفة ٣٠٩، أولي وثانية حقوق، خامسة وسادسة طب، كلما فتح البابان يلتقيان، في الحمامات، في المطعم والمسجد، هزيل كما هو، وإن زادت عليه البدلة النظيفة الواسعة قليلا، وهذه العظمة والنظرة الشرسة الكارهة وهو يتكئ بمرفقيه علي حافة المكتب، ينظر له ويملي السكرتير:

ــ يستدعي الطبيب الشرعي وتستخرج جثة المرحومة عزيزة السيد شاهين لبيان سبب الوفاة.

يرن التليفون، فيتلقى مكالمة. يخرج وهو ينظر له بغيظ، ويستدعي زميله ليقفل المحضر، ويوصيه بأربعة أيام علي ذمة التحقيق. كأن التجريس لم يكن كافيا، ليجيء الطبيب الشرعي علي رأس أكثر من ألف رجل وامرأة وطفل تتجدد أحزانهم، يقودهم الصول عبد ربه، وإبراهيم عجورة خفير المقابر، وجمعة أبو الجود الحانوتي. تم التعرف علي القبر وكتابة أوصافه، واستخراج الجثة بعد رش الماء أمام القبر وفرش ملاءة، وهش الذباب الأخضر الكبير بمنشة جريد، وضع الطبيب قناعا واقيا وارتدي القريبون أسوة به كمامات، وأخذ عينة من المخ والرئتين والمعدة، وفتح الجرح، وفك الغرز، ثم تحرك فتحركت خلفه كل هذه الجوقة. عاين العيادة ووصفها تفصيليا في تقريره: الكراسي واللمبات والأبواب والمساحة والآلات والأسرة والملاءات وحالتها والحمام والمطبخ وأدوات التعقيم والمكتب والأكسيجين. طمأنه بينما هو متكور علي

مكتبه وصامت بإنجليزية هادئة بأن موقفه سليم، فخطـوات العمليـة سليمة: فلا تجمع دموي بتجويف البطن، وليس ثمة خطأ جراحـي، وهنأه بلغة باردة بأنه أتم خطوات الجراحة وخاط طبقـات الـبطن وأقفل الجرح بنفس الكفاءة والهدوء رغم أن المريضة كانت قد ماتت قبل ذلك بخمس دقائق علي الأقل، لكنه لن يكـون سـعيدا ببـراءة متأخرة وهزيلة، لا تمحو إهانة ولا تزيل ضررا. براءة كالإدانة.

كآلاف الحالات التي تلد ولادة طبيعية سـتلد أروي، وكعـشرات الحالات التي تنزف بعد الولادة الطبيعية ستنزف، وكالقلة اللاتـي لا يستجبن للخطوات التقليدية لتوقف النزيف، سيكون من المحتم ــ مـا لم يلطف اللطيف من عنده ويتوقف وحده مثلما يحدث كل مرة فـي آخر لحظة ــ إجراء العملية البغيضة واستئصال الرحم كي يتوقـف النزيف. العقم أم الموت؟ أي الإجراءات يتبع. ومن يأخذ موافقتـه، الوقت جد ضيق قد لا يتسع لنقلها إلي المستشفي، ولا يتسع لـشرح ما يحدث. فقط يمكن استدعاء طبيب التخدير، وحـده الـذي يقـدر. وحده الذي يفهم بالإشارة، فورا..، احـضر.. نزيـف شـديد بعـد الولادة، خدر فورا. استئصال؟ نعم. يدرك الآن لماذا يصاب أطبـاء الولادة أكثر من غيرهم بالأزمات القلبية. توكل علـي الله. يعـرف وضع الطوارئ. لا يناقش. في دقيقتين نامت. وعشر دقائق لا أكثـر استأصل الرحم. قل النزيف لكنه لم يتوقف. يربط الأوردة والشرايين ويتنهد. لا يتوقف النزيف. لطفك يا ألله. يـربط الـشريان العجـزي الذي يغذي الحوض كله. آخر الحلول يا عمر. هذا المجـال أزرق. الدم أزرق. يغلق البطن في طبقات. صرخ عمر بقلق:

ــ حاول تخلص بسرعة.

الدم أمامه في المجال ازرق. ازرقت المريضة، ونفخ عمر في الجهاز. ضغط مضخة الأكسيجين ضغطات متوالية وعنيفة. لمس الفرش المعقم وهو يضغط بيديه قلبها ضغطات عنيفة ومتتالية وعيناه علي وجهها. هل توقف القلب؟ أدخل السماعة بعنف من صدرها. يستجدي القلب المتوقف أن يدق. انقلبت الدنيا داخل الحجرة وكأنها أظلمت فجأة. لم يعد بوسع أحدهما تذكر ما الذي حدث في الدقائق الخمس الأخيرة، قبل الخروج من الغرفة. هل خيط الغشاء البريتوني وعضلات البطن والشيث والجلد كل في طبقته أم لا؟ هل وضع الضمادات علي الجرح وثبت اللاصق كما يفعل في كل مرة؟ لا يذكر سوى أن امرأة تموت الآن بين أيديهما، ولن يفيدها إغلاق البطن بنفس الخطوات من عدمه ما دامت ماتت، وليس هناك أدني شك في أن المسئولية ستقع علي أحدهما أو كليهما.

بدا أن أحدهما لا يمتلك الحقيقة الآن، ليفهم ما حدث، لا ليشرح سببه لمن يصرخ بالخارج في عصبية وهستيرية دون استعداد لفهم ما حدث. المهم أن امرأته ماتت. الشيء الوحيد المؤكد، أنها ماتت. فارقت الحياة ولا سبيل إلي إعادتها. بدا الأمر كذلك حين خرج عمر أولا. ترك حقيبته كأنه يتنهد، في ذهول. خبط رأسه. فكر ما الذي يفعله. هداه تفكيره إلي أن يترك المكان. يهرب كما يهرب سائق صدم شخصا، تاركا كل شيء وراءه. رد فعل طبيعي لدى الإحساس بالرعب أو الخطر. خرج كأنما ليحضر دواء ناقصا من سيارته. نزل السلم ببطء. أسرع في منتصفه. ثم هرول في بسطة الثاني، حتى سمعت برطشة هبوطه. كيف امتلأت الصالة بعد ذلك بالواقفين، أمام باب العمليات الموصد بلافتة: ممنوع الدخول، فلم يراعوها ودفعوا الباب في الوقت الذي كان يهم بفتحه للخروج، وهو

يخلع قفازاته في ذهول. امتلأت الحجرة الـضيقة بالأهـالي حـول ترابيزة العمليات. انكشف ستر الحجرة. الآلات علي الترابيزة، آثار الدم في الماء الساخن بالأطباق يعطي انطباعا بأن الطبق مملوء فعلا بدم المريضة. لم يعد بإمكان أحد من هذه اللحظة فصاعدا أن يسيطر علي شيء. فتح غول الحكايات التي لا تنتهي فمه بأساطير. وانتاب الذهول الذين رأوا طبقي الماء المدمم للمـرة الأولـي فـي حجـرة عمليات لم تمهد لاستقبال أهل مريض انتهي لتوه من إجراء جراحة. إغماءات وانهيارات. لم يكن بوسعه ترتيب آلاتـه وحجرتـه حتـى لاستقبال الناس، مثلما يفعل في كل مرة. فيأمر الممرضة والـشغالة بالدخول أولا، لإزاحة وتنظيف الدم الناتج عن القيصرية والمـشيمة، تغطية الآلات والفرش الملوث بالدم، تنظيـف المريـضة وسـترها بملاءة خضراء، رفع الأنبوبة الحنجرية، وإزالة المخاط من جـانبي الفم، مسح دموع المريضة وهي تفيق لتقليل احتقان العينين، ونـزع المحاليل وإغلاق الكانيولا تمهيدا لنقل الحالة إلي أهلها فـي حجـرة الإقامة. يبين قبل كل ذلك حركات ذراع المريضة، تألمها أو حتـى صراخها والذي يسكت فورا حين تسرع خلفهـا الممرضـة بحقنـة المسكن. خطوات تتم دائما عقب كل عملية بمجرد إيماءة منـه فـلا يصدم مشاعر الأهل. يومئ لهم في تواضع، حتى لو حدث أن رأوا شيئا فإن مريضتهم التي تفيق الآن من التخدير وتهلوس بصوت عال وتحرك أطرافها يعطيه الحصانة، ويجعل لما يفعله قيمة باعتبارهـا من وجهة نظرهم عملية جسيمة وخطرة. يستأذنه الأقـارب لإلقـاء نظرة، فيومئ برأسه وهو يخرج بجسمه أولا من الحجرة:

ــ حمدا لله علي السلامة.. اطمئنوا.. دقيقة واحدة وتخرج لكم.

لم يكن بوسعه وهو يفتح الباب أن يمنع اندفاعهم للحجرة، وقد بدا صوته ضعيفا أمام تيار هادر وغاضب جرح كل شيء. أصبح الأمر أشبه بستارة انفتحت فجأة علي فرقة موسيقية لم تستعد ولم تنتظم، ليطلعوا في حجرة عمليات غير ممهدة لاستقبال أحد علي مريضة فارقت الحياة للتو:

ــ عزيزة .. يا عزيزاااة؟

ارتمي صامتا في حجرة المكتب علي الكرسي، واضعا يديه علي صدره في حالة ذهول. يرد علي بعض العقلاء بكلام مقتضب. يتلقي الصراخ والشتائم. لا يعي شيئا وهم ينظرون إلي قفازه المخلوع، وآثار الدماء علي حذائه البلاستك باستغراب، كأنه شخص ذاهل ارتكب لتوه جريمة قتل، في حالة تلبس. من أين جاء كل هؤلاء الناس؟ لديه اطمئنان غريب بأنه لم يخطئ، وأن سببا آخر وراء موت عزيزة. تموت عزيزة لو لم تسيطر علي النزيف من الشريان الرحمي، أو طالت العملية دون داع، وكلتا الحالتين لم تحدث. هذا هياج خارج المكتب، وهذا صوات يأتي من غرفة العمليات التي فتحت وامتلأت بالناس حول المريضة المسجاة، وهذه ضجة كبيرة قادمة من الشوارع التي امتلأت عن آخرها، كيف؟ لو لم يكن مطمئنا أنه لم يخطئ، لم تكن لتواتيه الشجاعة ليجلس هكذا وسط منهارين يصرخون في هيستيرية لا يحسب رد فعلهم .

ــ عزيزة؟ عزيزاااة!

خرج الصوات من النوافذ، فالتقي بصياح الشوارع. ترش الملح فلا ينزل، حتى لو فكر في النزول الآن كيف سيستطيع اختراق هذه الجموع المحتشدة بلبس العمليات الذي لم يخلعه بعد. هل فعل عمر مبكرا ما ينقذه من رد فعل متهور لأهل المريضة؟ لم يكن بالمكتب

فراغ سوي الكرسي الذي جلس عليه. يعتقد أنه لم يكن حتى بإمكانه القيام، مجرد القيام. وسط هذا الجنون برز رجل ملثم، بجلباب بلدي. صوته غليظ. فرد ذراعيه في الهواء. حجز عنـــه النـــاس، وتكلـــم بصوت عال وعاقل، رخيم ومسموع وحكيم. ما حـــدث حـــدث، ولا فائدة من كل ما يفعلونه، إنا لله وإنا إليـــه راجعـــون. لفـــوا ابنـــتكم وخذوها. كيف هدأ الناس والتخموا في لفها وإخراجها، وكان هو مـــا يزال يتكلم ويشيح بذراعيه الطويلتين فـــي أرجـــاء المكتـــب، كأنـــه يشرف علي ما يفعلونه، وهو صامت علي مكتبه، فقط تدور ذراعاه الطويلتان كمروحة، يتطلع إلي وجهه فيشير بعينه له أن يسكت، فلا جدوى من رده علي أسئلة عبثية لا يفيد الجواب عنهـــا، والـــسائلون في عصبية وانهيار لا ينتظرون إجابة أو فهما. وقف أمامه ضـــخما وعريضا، يحجزهم، ويمنحه فرصة ليغلق رأســـه قلـــيلا حتـــى لا ينفجر.

بدت جلسته الهادئة وسط هذه المعمعة أسفل ذراعيه موحية بـــأن الخطأ قد لا يكون خطأه، وأن طبيب التخدير الذي اختفي ربما كـــان هو السبب، مما دفع زوج عزيزة إلي تبليغ النيابـــة. قـــدم شـــكوى مباشرة، اتهمه شخصيا بقتل عزيزة، خروجا علي ما فعله أهله مـــن التسليم بقضاء الله وحكمه، بعد دفن الجثة بتـــصريح مـــن المركـــز الطبي، بناء علي تقرير تفصيلي كتبه.

كما رآه قديما في حقول الساحل المنحصرة بين مجــرى النهــر والطريق المرتفع، رآه حقيقة، باسطا يده إليـــه. احتــضنه فترقــرق الدمع في عينيه وتنهد معاتبا:

ــ لماذا كنت غائبا عني قبل ذلك؟

ــ ومتى غبت عنك؟

ــ ألم تغب أربعة عشر عاما ولم أرك إلا أول أمس.

قال بنفس البساطة:

ــ كنت معك.

ــ أحقا يا شيخي.. كيف؟

ــ من الذي كان يحوطك من الناس يوم ماتت عزيزة؟

ــ الملثم؟

ــ ومن تراه كان وكيل النيابـــة الثـــاني؟ ومـــن كـــان الطبيـــب الشرعي؟ ومن كان الذي يصلي عن يمينك في السيدة؟

عاد ثانية إلي التائية:

أروح وأغدو في الغيوب مسافرا مَحَطُّ رحال الســالكين براحتي

وريح رخائي تحمل الخير للدنا أصيب بها من ترتضيه إصابتي

رفع القلم ونظر نحوه. كأنما رفعت الغــشاوة عـــن عينيـــه، رآه جالسا أمامه، متكئا علي حافة المكتـــب بجلبابـــه الأبـــيض ووجهـــه الممتلئ وذقنه النابتة، كملاءة بيضاء طويت من أمام عينيـــه، بـــدت شمس الضحى صريحة خلف شرفة المكتب، وكان كما تركـــه عنـــد الكوخ، وبدا هذه المرة أنه يريد أن يتحدث، وأنـــه غيـــر متعجـــل. استفسر بمحبة:

ـ أكنت معي في كل ما مضى فعلا؟

ـ أو تراني أترك وارثي ليسجن؟

كان الملثم الذي حجز الناس عنه، وكان الطبيب الشرعي الذي طمأنه، ووكيل النيابة الثاني الذي أطلق سراحه. تذكر غيبته القديمة عنه يومين، كان قد زاره وأمام باب شقته انتظر لحظة قبل أن يضرب الجرس. لم يفتح الباب كالعادة فرجع. في اليوم التالي فعل ما فعل إلا أن الباب لم يفتح أيضا. حين أخذته الظنون رآه أمامه في المسجد، فسلم بحرارة وسأله: أين كنت، فقال بمحبة وفرح ونشوة: كنت عند سيدنا، وكيف وجدته؟ قال: نور خالص. وبم عدت؟ قال: بسبعين منحة: ألا ينجذب مريدي، وألا يدخل الخلوة، وألا يرتدي الخيش أو الهلاهيل، وألا يسجن، وألا يجوع ولا يعري ولا يدخل جسده شيطان، ولا يصيبه شلل ولا سرطان ولا باسور، وألا يرى نور نفسه فيصيبه الغرور، وألا تصيبه الغفلة، وأن يتمكن من قراءة ورق الشجر والماء والهواء والحب والنوى، وأن يقرأ ما هو مكتوب في قبة السماء، وما هو مكتوب علي الخلق والرزق، وأن يرث علما برواية وعلما بلا رواية، وأن يتجاوز توبة الهداية إلي توبة الخواص، وأن يتدرج من ذكر اللسان إلي ذكر القلب إلي ذكر الروح إلي الاصطلام إلي المشاهدة، وأن ينتقل من نطق اللسان في الظاهر إلي النطق بلسان الضمائر، وأن يتكلم بخفيات السرائر، فيقرأ من اللوح رموز معان دقت ويشرب من أوان رقت، ويخرج عن الكل فيكون مع قلبه، ثم يصير مع مقلبه، فلا حركة ولا كلام فلا يسمع إلا همسا، وأن يتقرب فيصير جليسا، ويستمتع بالمجالسة والمحاضرة والمشاهدة والمؤانسة، فتفتح له خزائن مملوءة بالأسرار والأخبار والمكنونات، ويصير من أولي العطاء، ويكشف عنه

الغطاء، ويأتنس بالحقائق فيكون من أولي السعادة، وأن يمنح توبة الخواص عما خطر له واختلج في أسراره، وألا يموت كما يموت الناس، مرض فعيادة، إنما ينادى فيجيب.

ـ أأرثك؟ أنا؟!

ـ نعم.. أنت الوارث.

ألهذا طلبه؟ ولهذا يجيء؟ تتحرق نفسه شوقا إلي أيام الصفاء والشفافية الأولي، إلي الجلسات الطويلة والتحديق في ماء النهر عند انحناءته التي يتجه فيها شمالا نحو المدينة، وتأمله في جزيرة الموز ملك أولاد فهمي بوسط النهر، لكنه لم يصدق ولم يخطر بباله أن يرث شيخه. قال له إن الواردات الإلهية قلما تكون إلا بغتة، صيانة لها عن أن يدعيها العباد بوجود الاستعداد. هل يختاره الشيخ وارثا بالفعل؟ ليست حياته بيضاء من غير سوء. هو مهمل ومستهتر، أضاع زمنا من عمره وفرصا كثيرة. جالت بخاطره علاقته بعائشة وانتصب الولد الذي حمل اسم أبيه أمامه حائلا، فدمعت عيناه:

ـ تعلم يا شيخي أنني لست أهلا لذلك.

ـ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

ـ يا شيخي .. ذنوبي عظيمة.

ـ محوناها بفضله ومغفرته.

احتار، إذا كان شيخه معه، فلم تركه إذن يرتكبها من البداية؟ لم لم ينقره؟ جاءه صوته حاسما:

ـ وما فعلته عن أمري.

كان قد اتخذ القرار: أن يظل يضرب رأسه بالحائط بعنف حتى يتحطم الوعاء الذي لم يستطع أن يفرغه من طيف عائشة الذي ظل يطارده لتسعة أشهر حتى في الصلاة فيخرجه من جامع البحر. يستدعيها رأسه من غيبتها البعيدة، يتتبعها وهي تكنس السطح وتؤكل الطيور وتلم الهدوم، يختلس النظر من بين صفحات الكتاب إلي صدرها المتحرر حين تقوم وتنحني وتجلس وهي تجفف بطوق الثوب الأبيض القديم رقبتها الغارقة في العرق ووجهها الأحمر كالكبدة. تنتهي فيرهف السمع إلي ارتطام الماء بجسدها وهي تستحم، وهي تجفف جسدها من الماء وتستلقي في السرير علي ظهرها، حيث يكون ثدياها نافرين خلف قميصها الأسمر، وشعرها محلولا حول وجهها المستدير الأبيض. تظل ساهمة تنظر في عينيه فلا يدري من الذي يراود من، وحين يصل إلي الصرخة المكتومة والضمة المرتعشة، يشده الواقف بجواره عندما توشك الركعة الثالثة أن تنتهي وهو ما زال يهز سبابته في التشهد.

صار لا يقرب الصلاة، ولا يدخل جامع البحر. تنطلق شياطين جسده من معاقلها لأدني حركة لعائشة. مجرد نفضها لمؤخرتها من طول الجلوس علي الأرض، أو تمطيها متثائبة وهي تضع الأرز جانبا لتكمله في اليوم التالي، أو هدهدتها لأطفال الجيران وهي ترطب بريقها حلمة البزازة قبل أن تضعها في أفواههم. تؤجج الشياطين جسده، فيجري إلي السرير حتى خيل إليه أنه يعيش في جنابة دائمة واحتلام متواصل. هل لاحظ أحد شيئا؟ سأله أبوه: ما الأمر؟ قال: أي أمر؟ فأشار إلي تغيره وانفلات أعصابه وميله إلي

العزلة. وسأله أخوه في إجازاته الشهرية بدون عائشة فلـــم يجـــب، وبالغ في عدم السؤال عنها خشية أن يفتضح أمره، أو يكون ســؤاله بداية لمواجهته بفعلته، حتى الكلام المعتاد كان يتجنب التـــورط فيـــه معه، فقط يلتقط أخبارها حين تجئ عرضا في الحديث. هل باحـــت لأخيه فمنعها من المجيء؟ في موعد الإجازات يظل بحجرته العليـــا قلقا، يحدق من الشباك، يتلهف أن يراها داخلة معـــه، لكنـــه يجـــيء وحده، فهل باحت له؟ قال أخوه وهو يسلم عليه مستفسرا عن تغيره: ما الحكاية؟ فهل باحت له؟ ثمانية أشهر وهو يستدعيها مـــن غيبتهـــا المفاجئة، فلا يفارق وجهه ثدياها، ولا يداه حلق الثوب الـــذي قـــده، حتى تهز بدنه تلك الارتعاشة التي يخلد بعدها إلي نـــوم عميـــق ثـــم يصحو علي نفس المشهد.

ثمانية أشهر، بعدها قال لأخيه: لماذا لم تأت عائشة معـــك؟ قـــال إنها تعبانة. جُنَّ جنونه. كان يريد أن يذهب إليها في عنوانه. يفتعـــل الزيارة ليعودها في مرضها. قال له بانفعال: لماذا لا تـــأتي لتكـــون بيننا، نراعيها في مرضها؟ قال أخوه بصبر: شهر وتبـــدأ الإجـــازة ونعود بطبيعة الأمر. كاد الجنون يقتله. لا يصدق أنـــه الـــذي فـــي المرآة. ما هذا الهزال؟ سيموت حتما. وشهر كثير جدا وطويل ولـــن يتحمله، شعر أنه يكره أخاه بالفعل، ولم يشعر بذنب وهو يفتعل لـــه الحوادث السيئة والمصائب القدرية، كي تعود عائشة إلـــي حـــضنه، ويخطط كيف يراها لأطول وقت ممكن، فيما لو فشلت الأقدار فـــي إزاحة أخيه من أمامه. كتب خطابا باسم الأب إلي الشركة يستعطفهم بنقل ولده إلي مكان قريب، يتمكن أن يسافر إليه يوميا ويعـــود، دون أن تكون به حاجة إلي أن يأخذ عائشة معه. عدل عن إرســـاله إلـــي الشركة وأرسله إلي برنامج"همـــسة عتـــاب". انتزعـــت الموســـيقى

المؤلمة الدموع حتى قبل أن يقول الصوت المتهدج: أنا يا حضرات المستمعين أب مسن، ماتت زوجتي منذ زمن وتركتني في الدنيا مع طفلين كالقطط المغمضة، ربنا قواني وربيتهم، الكبير موظف في شركة الأسماك، والثاني طالب في الثانوية العامة، وكانت حياتنا عال العال، لحد ما نقلوا الكبير إلي فرع الشركة في أسوان، ومن يومها يا حضرات المستمعين وحياتنا أصبحت جحيما، لأن الكبير أخذ زوجته التي ملأت علينا البيت وأنستنا وفاة المرحومة، وأنا يا حضرات غير مهم، فأنا أخذت حظي من الحياة، إنما خوفي كله علي الصغير، سيموت حتما يا حضرات المستمعين، لذلك أناشد السادة المسئولين بأن ينظروا إلينا بعين الرحمة وينقلوا ابني إلي فرع للشركة قريب، ليس مهما في مدينتنا، إنما يقدر يروح ويجيء منه في نفس اليوم، من أجل أن يرعانا أنا وأخاه.

لم يذكر في الخطاب شيئا عن فرع الشركة في المدينة، فتتاح له علي الأقل فترة النهار، ولن يفعل شيئا أكثر من أن يجلسها أمامه ويظل ينظر إليها. اقترب الموعد، وجاء أخوه وحده، زعق، فقال أخوه إنها ستجيء الأسبوع القادم. صرخ بحدة: ولماذا لم تحضرها معك؟ هل قالها بغلظة؟ هل قالها بحدة، حتى يضربه أبوه كل هذا الضرب المبرح وهو لا يشعر؟ يضربه ويقول، إنه لم ير أخا يعامل أخاه بهذه الغلظة، وقال وهو يضربه: ما الذي غيَّرَك؟ تدخل الجيران، حالوا بينه وبين أبيه، وهو صامت يحدق فيه كأنه لا يشعر بالضرب. يحوشه الناس فيضرب أكثر ويصرخ:

ــ ما الذي حدث لهذا الولد؟ هل جُنَّ؟

يحدق نحوه كأنه يتحداه. بالغ في ضربه، فلم يبك، ارتخت ذراعه وهمدت ولم يبك، فبكي هو واحتضنه:

ـ ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟ أستغفر الله العظيم

كان صامتا لا يرد، مندهشا، ألجمته المفاجأة، شلت تفكيره فظـــل صامتا لا يتحرك ولا يجري ولا يهرب، لم يضربه قط بهذا العنـــف وهذه القسوة، لأنه عامل أخاه بما لا يليق بأخ أكبر. انحنى الأخ علي يد أبيه وقبّلها وقال إنه سامحه. وظلت يده ترتعد، حتى ذهـــب إلـــي عمله في الصباح، وفتح بذات الذراع المرتعدة طريق المخازن أمام قطار زفتى، بدلا من الطريق الطوالي.

صدم في هذا اليوم مرتين، فقد مات أبوه حتى قبل أن يجيب عن السؤال الأول في التحقيق، وعادت عائشة من أسوان بآلام الـــولادة. وهو يسير بكتفه أسفل نعش أبيه، كان قد اتخذ القرار. كـــان يخـــبط رأسه في جدران المقابر في صمت، انتبه المشيعون علي الطرقـــات المتتالية والمكتومة والدم النازل علي الوجـــه، فحـــالوا بينـــه وبـــين الجدار، ودمعت عيونهم، وهم يمنعونه:

ـ لا تكن كافرا.. ما تفعله لن يعيد الذي راح..

منعوه. فالحي أبقى من الميت، لكنه كان قد اتخذ القرار، فـــامتنع عن الطعام، وأرهق جسده بالسهر، والتزم غرفته لا يبرحها ولو إلي مسجد البحر. كما هزم الجسد، انشغل بهزيمة الرأس. انكـــب علـــي المذاكرة، يقرأ كل شيء، يحفظه. الحفظ عقوبـــة الـــذهن. اســـتظهر عمليات حسابية معقدة، ودليل تليفونات المدينة، وحفظ كم حبة فـــي كيلو الأرز والسكر والقمح. كان قد اتخذ القرار، ألا يتـــرك عقوبـــة فيها إرهاق للذهن أو إجهاد للجسد. ظل يخنق حتى انطفأ كل شيء، وظهرت نتيجة الثانوية العامة، وعادت عائشة كما كانت مـــن قبـــل، تروح وتجيء فلا يراها، وأصبحت في حجرتها المجـــاورة بعيـــدة، كأنها في أسوان مع أخيه. وفي طب عين شمس، زاد البعاد، وعادت

عائشة التي يقابلها مع أخيه كل أسبوعين عائشة أخري غير التي في المشهد، فقط كان يختلس النظر إلي ابنها، فلا يستطيع أن يتبين إلـــي من تنتمي أكثر ملامحه، إليه أم إلي أخيه. وحدها عائشة ربما التـــي تعرف.

كان عبد المجيد يخرج من حكاية ويدخل في أخرى. يأخذ من هذه لتلك، ويميت أشخاصا هنا ويحييهم هناك، غير أن حكاية الكنز وحدها ــ دون كل ما يهذي به عبد المجيد ــ ظلت الأثيرة لديه. يسردها بلا تحريف، ولا يبدل من أحداثها شيئا مما اعتاد تبديله.

وقد ظل الملك الذي احتار في أمر من يرثه، يبكي طوال الليل لأربعة عشر عاما طالبا من ربه أن يهبه الذرية، حتى تصادف أن كانت أبواب السماء مفتوحة، ومنحه الله طفلة جميلة، فكتب علي بوابة القصر:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب.

حزن وزيره الذي كان قد رتب لنفسه الانفراد بالحكم، فلجأ إلي كبير السحرة ليخفي الأميرة. ثار الملك وأقال رئيس الشرطة، والحرس الخاص بالأميرة، وخادم الملك، ورصد المكافآت لمن يدلي بمعلومات عن الأميرة، فاجتمع في القصر فاتحو المندل بقارئي الكف وضاربي الرمل وقارئي الطالع، قالوا: إن الأميرة محبوسة ببئر عميقة، وقد عُقِد قرانها علي الجن الأرضي ميمون النكاح، ولا يفعل ذلك إلا من توَضأ باللبن وصلي عكس القبلة وقرأ القرآن بالمقلوب، ثم تلا قسم ميططرون ملك الأرواح الروحانية الأبرار، الساكنين تحت عرش الملك الجبار، الساجدين لله الواحد القهار ليأمر خدامه وأعوانه الميامين السبعة الأرضيين بخطف الأميرة وتزويجها من ميمون النكاح.

اجتمع الفلكيون بدارسي الزايرجة وعلماء الأبراج وحساب المثلثات والدلالين، لكنهم فشلوا في تحديد البئر أو إعادة الأميرة.

أرسل الملك في طلب ممتهني الوشوشة والتنويم المغناطيسي والمخاوين من البلاد، ومن الهند خبراء اليوجا ودارسي أسفار سليمان ومزامير داود، واستقبل شماسين وكهنة، لكنهم كانوا يخرجون كما يدخلون، فقال: دبرني أيها الوزير، فأتى إليه بكبير السحرة، الذي نصحه بتحويل قصوره ومقتنياته إلي كنز يرصده للأميرة، واقترح أن تكون مدة رصد الكنز مرهونة بظهور الأميرة، ومنعا للاستغلال من قبل أي ساحر، وضع أنابيب الزئبق الأحمر لتطيل الشمة الواحدة منه عمر الجن المكلف بحراسة الكنز مئة عام، وختم عليه بطلاسم لا يفكها ساحر غيره، وجعله ينتقل حتى من زمن إلي زمن، ومن مكان إلي مكان مخبوءا عن الأنظار، مرة في قاع بحر ومرة في مدافن غير مسلمين، ومرة في قصر الملك نفسه، وأخرى في الطريق هكذا دون أن ينتبه الناس إليه.

رأى الوزير أن الملك يصر علي الاختلاء بكبير السحرة دونه، فخشي أن يبوح للملك بما حدث، أو أن يتراجع فيخرج له الأميرة، فأصدر الوزير أوامره السرية، فعثر علي كبير السحرة مقتولا خارج القصر. عاد السحرة مرة أخرى إلي القصر، فأحرقوا خمسين ألف مثقال من البخور والعود والصندل، وغلوا ألف أوقية من الرصاص، ثم أجمعوا علي أن الكنز لن يفتح إلا في موعده المحدد. لم يغلقوا الباب تماما، لكنهم أجمعوا علي أن الكنوز المرصودة كلها تظل ليلة واحدة كل عام دون حراسة، هي ليلة القدر. أمر الملك الرعية بالخروج في هذه الليلة إلي الخلاء، والتحديق في الأراضي والطرق والجدران القديمة والصحراء، غير أن الكنز لم يفتح.

عقب كل مرة يروي فيها عن الكنز، كان عبد المجيد يتأمل واضعا يديه خلف ظهره طويلا في مكان ما، يدور حوله، ثم يجلس

علي عقبيه ويعبث في الأرض بيده، ثم فجأة يحفر بالفأس بهمة قاذفا بالتراب خارج الحفرة، وحين لا تظهر يداه المرفوعتان من الحفــرة الواقف فيها، يفتر حماسه، فيصعد مجهدا وهو يبــصق علــي أولاد الوسخة الذين نقلوا الكنز في اللحظة الأخيرة. وصل شغفه بــالحفر مداه حين كان يلازم رجال الحفر فــي شــبكة الميــاه والتليفونــات والكهرباء، يقف شاردا لفترات طويلة، يطيل التأمل، ويقفــز أحيانــا ليساعدهم في الحفر، حتى ملوا من وجوده ومنعوه، لأنه يحفر غالبــا بمزاجه، وفي اتجاه غير ما يسعون إليه. أخذ يلح عليهم، بــالوقوف فقط لكنهم منعوه حتى من الوقوف، فظل حزينا لا ينام مــن الــسبت إلي السبت. يقظة مطلقة. في السبت الأول أخذ يدق بكفيــه حــوائط الحمام المظلم ويزعق. أخرجوه وطلبوا الطبيب، فاستغفلهم وأشــعل الموقد وظل يحدق في النار بذهول الإثنين والثلاثاء. أخرجوه عنــوة إلي سريره، وأحضروا إلي جانــب الطبيــب المعــالجين بــالقرآن، فاستمر كبندول الثلاثاء والأربعاء، ينام ويقعد بلا راحة في نــوم أو قعود. أغلق الطبيب حقيبته والمعالجون بالقرآن مــصاحفهم واتفقــوا علي أنه سليم. ظل الخميس والجمعة متكورا في سريره كقنفذ يحدق في فتحة الباب ويصرخ: سأموت. وصف الطبيب مهدئات وقال: لا تطلبوني مرة أخرى من فضلكم، لكنه رفض الاستحمام بماء الرقــي أو فتح فمه للعلاج. السبت الثاني، بينما كان الطبيب الذي في عيــادة أندراوز يغلق حقيبته بملل مكررا وهو يضغط مخارج الحروف إنــه سليم، مات عبد المجيد.

تنهد إمام الفنجري في الفناء وهو يتساءل:

ــ ألا تعرفين لماذا مات عبد المجيد؟

ــ لماذا؟

ـ لأنه حاول فتح الكنز دون أن يحصن نفسه.

ـ منذ عرفته وهو يبحث عن كنز، فما الذي جد في الأمر حتى يموت؟

قال إمام إنها لا تعرف أنه في كل مرة كان يحفر بعيدا عن الكنز، لكنه في المرات الأخيرة كان يصطدم به، ولأنه لم يحصن نفسه جيدا كان لابد أن يؤذى من حراس الكنز. وعرض عليها إن كانت تريد مساعدة. قالت شكرا، فخرج. استوقفته على البوابة الخشبية من الداخل العبارة المحفورة: "ملك الملوك إذا وهب.. لا تسألن عن السبب"، فنظر إليها قائلا:

ـ إذن شدي حيلك.

رنت إلي خارج البوابة الخشبية، فلم تجد الحصان. بكت وهي تنشر ثياب الموت علي حبل في فناء بيت من حجر، بطابق واحد أصفر حائل، معرش بكمر حديد وعروق من الخشب المصري، أشبه بفنائه الواسع وحوض المياه في المنتصف والبوابة الخشبية بطاحونة قديمة. حجرة عبد المجيد ذات شباكين، أحدهما علي الفناء والآخر علي الخارج، ملحق بها حمام ومطبخ. البيت بأكمله من حجر، والأرضية من حجر، كأنه وكالة أو مدرسة. حجرات البيت الأخرى لأروى وراشد، تطل علي الفناء، ويبطن أرضيتها خشب الباركيه، ولها شبابيك طويلة وعتيقة علي الشارع محاطة بكرانيش. قال عبد المجيد إن البيت كان في السابق مبرة، وكان مدرسة، وقال إنه كان استراحة، وكان بورصة للقطن والموالح، وقال أيضا إنه كان شونة لتخزين الغلال، وكان البيت بهيئته يوحي بتقبل هذه الروايات دفعة واحدة، وبالرغم من أن عبد المجيد كان يهذي، فإن هذه البوابة الخشبية هي التي شهدت ضربه للحاج احسن ست عشرة

بلغة مدهوكة بالخراء، وهي التي نخ الحصان البني أمامها كجمل ولم يواصل السير من يومها، وعلي المصطبة التي في الفناء رقد راشد علي حجر عبد المجيد بعد موت أمه يستمع إلي حواديته، ثم رقد مرة أخرى مكبلا بالرجال والجيران عليها في ثانية إعدادي حين مسه الجان، وفي وسط الفناء شق عبد المجيد جلبابه، وخبط صدره العاري وهو يشتم العفاريت ويهددهم.

تساءل محمد البيه بجسمه النحيف وصدره الذي يخرفش من الربو، وهو يضبط طاقيته الصوف الأشبه بطربوش علي رأسه الدقيق:

ــ كم يوما مرض عبد المجيد؟

ــ من السبت إلي السبت.

فاتكأ علي المصطبة بالفناء ووضع يده الرفيعة متفكرا أسفل عظم خده البارز ثم سألها:

ــ وهل جاء هنا إمام الفنجري؟

ــ جاء مرة بالطبيب وجاء مرة للعزاء.

فخبط كفا بكف:

ــ إذن هو الذي فعلها!

ــ فعل ماذا؟

مثل كل الفنجرية، كان إمام عديم الأصل، لا يهمه سوى القرش. خلق كي تعصب عينه ويعلق الخرج في كتفه، ويردد المدائح النبوية، ولأنه أعمى القلب، ولا ينظر إلا تحت قدمه، فإنه قبل مجيء الفرج ببرهة غالبا ما يقنط ويتحول إلي مهنة أخرى، فعمل طبالا ثم مسحراتي ثم قارئا للبخت. قطع في سبيل تحويل التراب إلي ذهب تسعا وتسعين خطوة، وفي الخطوة الأخيرة ضرب قالبين

من الطوب الأحمر فصرخا وانبثق الدم منهما، عندها فهم أن نهاية سبيله الدم، فتوقف ولجأ إلي الأسهل، البحث عن الكنوز، معتمدا في تحديدها على قسم البرهتية الخاص بهارون أخي سيدنا موسي، وقسم الجلجلوتية الخاص بسيدنا علي. قرأ بعض القراءات علي سبع بيضات كتب عليها الطهاطيل السبعة، فاتجهت كلها نحو مكانه بحائط سميك يفتح بشباك جهة الشرق، وأنه مرصود بأمر من مهطهطيل، ملك يوم الإثنين بالسريانية وبالعربية جبار، وأمر من العون الأرضي مرة لنفس اليوم، لكنه لم يتوصل إلي فك الطلاسم التي استخدمت لرصد الكنز، فتكحل بعيني ديك ظل يشرب من مسقاة رصاص حتى احمرت عيناه بلون عرفه، وكان قد كتب علي بيضته قبل الفقس لمقفنجل، الحروف الأولي للطهاطيل السبعة، ثم رقدت علي البيضة دجاجة لا تشرب سوى من مسقاة الرصاص. ذبح إمام الديك وتكحل بعينيه فرأى الأرواح العلوية، ثم تكحل بمرارته فرأى العوالم السفلية، وتكحل مرة ثالثة بدمه ليرى الكنوز المخبأة، فاطلع علي محتويات الكنز واطلع علي طلاسم الكنز فقرأ: "وكان تحته كنز لهما"، و"فأراد ربك أن يستخرجا كنزهما"، و"حتى يبلغا أشدهما". لكنه لم يستطع فتح الكنز، ورأى عبد المجيد أمامه في كل خطوة، فذكر اسم الله المميت علي ٥١٢ نواة من التمر ست مرات علي كل نواة، وشكل النوى بهيئة عبد المجيد، ثم صلى عليه صلاة الجنازة، كي يموت بعد أسبوع.

سعل البيه ووضع يدا علي صدره ويدا علي الطاقية وخرج بظهره المنحني ثم بصق، قبل أن تستوقفه العبارة المكتوبة علي البوابة الخشبية، فقال: ومتى كتبت هذه أيضا؟ ثم التفت وقال: لو قرأها إمام لعرف أن الكنز لن يذهب إلا إلي صاحبه، غير أن عمي

البصيرة يورد الناس موارد التهلكة، فكلاهما رأى الكنـز، وكلاهما رأى الحراس حوله، وفيما تحين عبد المجيد غفلة الحراس للانقضاض، فعل إمام فعلته.

كان البيه لا ينطق بغير الحكمة منذ لبس هدومه بالمقلوب ونام علي خشبة غسل الموتي سبع ليال، معتزلا الناس في غرفة صنع بابها من خشب نعش قديم، وطالت عزلته وهو يطلع علي كتب ومخطوطات قديمة، فلم يأكل إلا مما تنتجه الأرض، وابتلي بالانحناء والربو والصرع ونوبات الصراخ الليلي، واجتاز اختبارات عسيرة قبل أن يمتلك قراءات وتعاويذ تمكنه من إشعال النار ــ لو شاء ــ في بيوت خصومه، وإصابتهم بالأمراض وتعذيبهم بحبس البول وإبطال النوم وتسليط الهموم والأحزان عليهم، ورجم ديارهم، وإخراجهم منها أو من المدينة كلها وتسليط الصداع عليهم وإصابة عيونهم بالرمد. تخطت شهرته المدينة إلي أقاليم مختلفة، وصار رواده من خارج المدينة ينامون ليلتين في العراء أمام غرفته انتظارا لدورهم في الدخول، حتى استعانت المباحث بخبراته في الكشف عن الجناة والإرشاد عن أماكن إخفاء المسروقات، وأمرت السلطة بإذابة تعاويذه في الماء، وكلفت الجنود برشها علي آلات الحرب فلا تخطئ، وتلاوة تعاويذه قبل الرمي ليتمكنوا من إصابة الهدف، وبمعونته فكت الأسرى وخلصت المسجونين، وكان البيه من غرفته المنعزلة عن المدينة باستطاعته تهدئة البحر وتذليل الدواب ومنع النوم أثناء ركوبها وعدم التعب من المشي والحماية من قطاع الطرق والسباع الضواري والوحوش.

عشرات المرات، كانت عائشة تخرج وتدخل من أمامه كل يوم. يعين عليها دست المياه، ويأكل معها، ويوصلها في الظلام إلي الحنفية العمومية، ويطلع معها إلي السطح لتقشير الذرة ووضع الجبن في الزلع، ويحل معها مسائل الحساب، ويضربها، ويشتمها في بيت من الحجر يواجه النهر، لا يفصله عنه سوى الطريق الذي رصف أخيرا، يمينه حجرتان ويساره حجرتان، بينهما مدخل ودهليز يفصل بينهما باب الوسط، ثم السلم الحجري، تحته دورة المياه، ثم زريبة كبيرة بعرض البيت من الخلف، وفرن الخبيز البراني. عشرات المرات يوميا، كانت عائشة تطلع وتنزل، وتجيء وتروح أمامه في هذا البيت الحجري المملوك لأخوين بأسرتيهما، ولم يكن أمامها من ثَمَّ سوي أن تنضج لتتزوج أخاه الأكبر، وتنتقل فقط من الجانب الأيمن من البيت إلي مقعدين بنيا علي عجل فوق الزريبة في مؤخرة البيت. ولم يكن عليه سوى أن ينضج ويكون في الثانوية لكي يفصل مقعده الذي بني علي حجرة أبيه عن مقعدي عائشة سقف ترابي وفتحة السلم الحجري. لم يحدث شيء ــ حتى اتكأت علي مقشتها لتستريح من تنفيض وكنس مقعديها ومقعده وتنظيم فراشه ــ سوى أنه انتبه إلي أنها عائشة أخرى غير التي يعرفها، بيضاء مثل بطة منتوفة، في ثوب قديم ابيضت زهراته الصغيرة، ضاق عليها عند الصدر أو سمنت قليلا فتمزق من تحت الإبط وأمام الكتف، فقال لها لأول مرة: شكرا فضحكت حتى اهتز جسدها، هي التي لم تكن تعلم أنها صارت عائشة أخرى، أحلى كثيرا، وأروع، يحاول الثوب القديم دون جدوى أن يمنع جسدها من البروز حين تتكلم

بتلقائية أو تحرك ذراعيها وتميل برقبتها المعروقة لتجففهـا بـنفس الجلباب، فيهتز ثدياها ويبرزان كلما ضحكت أو مالت إلـي الأمـام واتكأت علي مقشتها ويشف الثوب الخفيف عن حلمتيها الغامقتين. لم تكن بهذه الحلاوة حتى في فستان الفرح الذي لبسته في حجرة أمهـا وجلست في كوشة جنب أخيه أمام باب البيت. فيما صارت نظراتـه مختلفة، كفت عن الكلام التلقائي. صارت تـسمع فقـط ولا تـتكلم، تؤمن علي كلامه برأسها وعينيها اللتين اتسعتا أكثر مـن أي وقـت مضي، ووجهها الذي ازداد استدارة وبياضا. عائشة أخرى بـضة، يؤطر رأسها إيشارب قديم، فتبين أسفل حافتـه خـصلات شـعرها المبتل بالعرق. توقف الكلام واستطالت النظرات. قال متلعثما: فـيم كنا نتكلم؟ فلم ترد. فقط ابتسمت ونظرت بعينين ناعـستين لأسـفل، وأتت الحمرة علي وجهها ورقبتها وانتقلت السخونة من كفها القابض علي المقشة إلي جسده. كيف تجرأت يداه ـ متجاوزة كل الحدود ـ وأحاطتا بحلق الثوب القديم وقدتاه نصفين ودخل بها مقعـده وظـل يجوس بوجهه في صدرها ويدس أنفه في إبطيها متتبعا تلك الرائحة الغامضة؟ ومتى تلاشت القيود فـصار العـدوان التحامـا وتعلقـت بذراعيه مغمضة فلم يدر من منهما الذي كان يرتعش ومـن الـذي صدرت عنه كل هذه السخونة وكل هذا الخوار؟ كمن يـستيقظ مـن حلم، لم يصدق حين فتح عينيه في الصباح علي القفلـين ببابيهـا أن تكون قد ذهبت مع أخيه إلي أسوان.

يرتسم هذا المشهد الوحيد في رأسه بحذافيره وتفصيلاته الدقيقـة، وسيتعمد فيما بعد أن تكون المرأة التي سيتزوجها بـنفس المنظـر، وسيظل في عنفوانه وانطلاقه معها كلما لبست جلبابا قـديما ونظيفـا وفي ذات الوقت ضيقا قليلا، وستظل لسبع سنوات لا تعرف لمـاذا

يمزق حلق ثوبها ويقده نصفين وهي متكأة علي عصا المكنسة وبهـــا حبات العرق علي حافة السلم قبل أن يجذبها إلي حجرة النوم، وكلما تسأله مستغربة لا يجيب.

عائشة التي في أشهر أرقه كان يستدعيها من غيبتها البعيدة علي ذات الفراش فتطاوعه ولا يفارقه طيفها، رجعت عائشة عادية تمامـــا كما يعرفها، وإن ظلت ملامح المشهد متمثلة في رأسه كمشهد ناتئ. تراه فتنزع ثديها من فم سماء وتدخله حتى يمـــر، وتخفـــي بـــشكل وهمي طوق جلبابها ــ إن جمعهما حديث ــ فـــلا يبـــين صـــدرها. تمرض فلا تجعله يفحصها، تكتفي بالشكوى ووصـــف العـــلاج دون كشف، وإن زاد المرض فالفحص من فـــوق الهـــدوم، وإن رقـــدت مرغمة تحت وطأة المرض الشديد فإنه عندئذ يكشف أي جزء فـــي جسمها دون تحفظ، وعند الصدر تحديدا يشعر بالمقاومة، وحركتهـــا اللاإرادية تجذب الهدوم لتحت. ولولا زوجها لما ولدها سماء آخـــر العنقود حين أقسم ألا تدخل بيته قابلة وأخوه طبيـــب، وحـــذرها أن تظل كما في نجلاء تخبئ الألم حتى تنزل البنـــت وحـــدها فيحـــدث النزيف الشديد. ذكرته بأن القابلة التي أقسم عليها هي التـــي ولـــدتها مرتين، فصفق الباب:

ــ لكنه لم يكن قد تخرج بعد.

فيما كان الفرق شاسعا بين صدرها الذي في المـــشهد وصـــدرها الذي لم تكن تريد أن يضع سماعته عليه، تساءل في نفسه إن كانـــت هي التي في المشهد أم عائشة أخرى، ولمئات المرات سيظل يحسب لعله يخطئ المدة بين المشهد وسفرها إلي أسوان ومولد الولد، لكنـــه سيجدها ولمئات المرات تسعة أشهر بالتمام والكمال، وسيظل كلمـــا

رأى ابن عائشة يتساءل في حزن وأرق: ابن من منهما ذلك الولد البكري الذي سارع أخوه وأطلق عليه اسم الأب؟

انزرع اسم وانخلع اسم، جاء أبوه ومات أبوه، ربما كانت ذات اللحظة، وربما كان المتسبب في الوفاة هو نفسه المتسبب في الميلاد. كأنما انطفأت الشهوة بعد هذه اللحظة تماما، عادت عائشة إلي وضعها القديم، وإن لم يغب وضع المقشة والثوب القديم، ولم يفارقه مشهد القد حتى وهو مشغول بالدراسة أكثر من أي وقت مضي.

ــ ذنبي ثقيل يا شيخي.. لا تمحوه مغفرة

ــ ذنبك الذي تقصده محوناه بإذنه..ألم أقل لك؟

ــ كيف.. أريد أن أفهم؟

ــ ألم أقم عليك الحد؟

ــ لا..

ــ والمائة جلدة التي ضربها لك أبوك؟

ــ معقولة؟

أجهد ذهنه في التذكر. اعترض على أخيه لأنه جاء من أسوان وحده بدون عائشة، فسحب أبوه الزخمة الجلد ــ لا يذكر من أين ــ ولسعه مرتين كي يتكلم بشكل لائق عندما يتكلم مع أخيه الأكبر. وبدا كأنه سيكتفي، لولا أنه لم يرد، وزادت نظراته النارية حنق أبيه الذي اعتبر صمته استهانة، ونظراته متبجحة، فظل يضرب بسرعة وبقسوة وجنون وهو يلهث غير أنه لم يفتح فمه ربما من المفاجأة، كأن الضرب في أحد آخر. كان يضرب كأنه ينتظر ثورته ــ التي لم تحدث ــ حتى يبرر ضربه العنيف. يحوشه الناس فيضرب بقسوة وسرعة. ولما تركوه وتراجعوا، خفت ذراعه حتى بطأت

تماما، ثم نهنه كطفل صغير راميا العصا بالسير الجلـدي، وأخـذه بالحضن:

ــ يا بني انطق.. قل كفاية.. قل خلاص.. قل أنا بريء.

عندئذ فقط بكي، ليذهب الأب إلـي عملـه فـي اليـوم التـالي مضطربا، تؤلمه ذراعه اليمني، فيفتح بنفس الذراع سـكة المخـزن للقطار الطوالي بسرعته.

ــ أكنت معي؟

ــ ومن تراه الذي كان يضرب؟

ــ وابن عائشة؟

ــ إنه ليس من أهلك.

استراح. كان مشهد قد الثوب في رأسه ما يـزال يؤرقـه. الآن زال عنه الهم. سبحانه غفار الذنوب، يغفر لمن يشاء، ويعـذب مـن يشاء. رحمته أوسع من غضبه. وهو أرحم الراحمين. يقبـل التوبـة عن عباده. طلب أن يقصد وجهه وألا يفكر في سواه وأمره بـصوت حان:

ــ اتق الله حق تقاته.

هل يكون الأمر فوق استطاعته. أن يذكره فلا ينساه وأن يـشكره فلا يكفره، وأن يطيعه فلا يعصاه. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. لـم يرد انتظارا للتخفيف، فقال شيخه بلوم:

ــ اتق الله ما استطعت.

لم يرفض ولم يقبل. هل يتعهد بوعد سيكون الإخـلال بـه ذنبـا عظيما. لم يرد منتظرا التخفيف. أخرج سيفه من غمده وزعق:

ــ اتقوا الله ويعلمكم الله.

هل كان يقصده هو؟ لم يعرف بماذا يــرد. هــل يقــول ســمعا وطاعة؟ كان قد أخرج سيفه ورفعه كأنه سيجربه في الهــواء، قــال بسم الله، وهوى به مرة واحدة علي رقبته، فــصرخ وهــوى إلــي الأرض. لم يمت بعد ضربة السيف. لم يمت. كان ما يزال يــشعر، وكانت به حياة. سمعه يردد:

وأقتل باسم الله في الصب نفسه   فيحيا حياة الصالحين بقتلتي

قال: قم، فقام طائعا. كان ما يزال يشعر حين سمعه يأمره بحزم: اتق الله حق تقاته، فأومأ صاغرا. طوح السيف في الهواء باتجاهــه فتلقاه بحذر. اندهش. كان سيفا من ورق وكان يــشعر تمامــا كأنــه مذبوح، فأخبره أنه ما قتل منه بالسيف سوى نفسه الــضعيفة التــي حدثته في المرة الأولى، وماطلت في الثانية. وتعامت فــي الثالثــة. تساءل كيف عرف ما بنفسه، فقال:

ــ الظاهر مرآة الباطن.

لم يندهش من طول المدة وهو يرد علي أسئلة اللجنة بــصراحة غريبة. يقول ما يعلمه وما يشعر به، كأنه يواجــه نفــسه. لا يعنيــه اندهاشهم ــ وهم يتناوبون إلقاء الأسئلة وينصتون جميعا للإجابــة ــ ولا انصراف الزملاء من أمام اللجان الأخرى، حتى نظــر رئــيس اللجنة في ساعته وقطب حاجبيه وتبادل النظر مع الأعضاء ثم أومــأ له بكفه المفرودة لأسفل فتوقف عن الكلام، وبإشارة أخرى جافة من نفس الكف المنبسطة لأعلى انصرف.

كانت الصور المعلقة علي تابلوهات خشبية في الصالة وغرفة المكتب وغرفة الولادة كلها لنساء يبتسمن وفي أحضانهن مواليدهن، وكانت تبدو كأنها التقطت بتلقائية، إذ بدت الابتسامات عريضة ووضعت الأكف بعفوية أمام أفواه مفتوحة أو مضمومة خجلا من مفاجأة اللحظة. تلك اللحظة التي يتقن أنفسهن فيما بعد للعودة إلي العيادة للتفرج عليها، واستعادتها منذ التقطت لهن عقب الولادة، أو خلال فترة النفاس وهن يخرجن أثداءهن ويبتسمن لأطفال بلا ملامح كأرانب صغيرة، وكن ــ رغم الأسماء الأولي فقط لهن والأسماء الثلاثية للمواليد ــ يبدون كأمهات مختلفات لطفل واحد.

كان يتعمد التقاط الصور في هذه المرحلة الانتقالية، حيث يلحن منسدلات الشعر بأطواق أثوابهن الواسعة التي تشي بأنهن مقبلات علي رضاعة طبيعية، ونظراتهن الفرحة والمقبلة علي الحياة، بهرمونات الأنوثة المفرطة التي لم تكن قد عادت لطبيعتها بعد، والتي تمنحهن سحرا وجاذبية وتجعلهن كأبقار حانية وهن يتطلعن إلي الكاميرا ببراءة ويحضن أطفالهن. كان يتعمد تسجيل هذه اللحظة تحديدا دون أن يدور بخلده أن العيادة ستتحول إلي أرشيف أو ألبوم كبير للذكريات، وأنهن سيقفن مشدوهات أمام هذه التابلوهات، ولن يتحركن قبل أن تنبثق دموعهن أو تنفرج ابتساماتهن.

هل جاءت إلي هنا كي توضع ضمن ألبوم كبير لأمهات بأطفال يرتدون ذات الملامح وذات الملابس؟ فقد كان يصر علي ألا يخرج الطفل المولود من العيادة إلا وقد ارتدى ملابسه الأولي المكونة من فانلة بيضاء داخلية، وجلباب أصفر أو لبني مفتوح من الخلف بوردة

حمراء علي الصدر وقماط للسرة وطرطور أسود من التل. يـــشتري الملابس بنفسه جملة من سوق الإثنين، وتوزعها نازك فـــي أكيـــاس منفصلة وتضع ورقة بخمسة جنيهات جديدة في جيب كـــل مولـــود، نقوطا حتى قبل أن يأخذ أجره. بإيماءة بسيطة منه، تعد نازك للوالدة كوبا من الحلبة الدافئة، تليها في فترة الملاحظة والتي تمتد لـــساعتين بعد الولادة وجبة من ربع دجاجة وطبقين من أرز وخضار. بانتهـــاء فترة الملاحظة يزول الخطر ويعود الارتياح إلي الوجـــوه، فيتحـــول الهمس إلي ثرثرة، وتتداخل القبلات المهنئـــة مـــع بكـــاء المولـــود ومناغاته، ويبلغ الصخب منتهاه حين ترن الزغاريـــد فـــي أرجـــاء الحجرة التي لم تكن سوى ساحة للصراخ منذ قليل. في هذه اللحظـــة تحديدا ودون أن ينتبه أحد يضيء فلاش الكاميرا ليثبت اللحظة.

ثمة أسباب كانت تجعلهن يعدن إلـــي العيـــادة قبـــل الأربعـــين، ليستعملن وسيلة لتنظيم الأسرة، أو للكشف علي الطفـــل أو ختانـــه، لكنهن في أحيان كثيرة كن يجئن خصيصا للتفرج علي هذا الألبـــوم، وكان يجد صعوبة كبيرة في تذكرهن بعـــد الأربعـــين وقـــد عـــدن جميلات ورشيقات كما كن قبل الحمل.

بينما كانت تمر علي التابلوهات الخشبية، في الـــصالة والمكتـــب وغرفة الاستراحة، كانت في الحقيقة تمضي الوقـــت بعيـــدا عـــن السرير المقبض، والمحاليل. أمضت الوقت في تفقد الصور وقـــراءة الأسماء، تعرفت علي القليلات من بـــين ألـــف وثلاثمائـــة وخمـــس وثلاثين صورة، بدا كأن العيادة قد امتلأت، وكأنه لا مكان لها هنـــا. بحثت عن عزيزة ونهلة، فلم تجدهما، فارتمت علي السرير، خائفـــة تحدق في باب حجرة بسريرين، أحدهما للنـــوم، مفـــروش بمـــلاءة وكوفرتة، والآخر طبي للولادة، مقبض ومخيف، علي رأسه زجاجة

جلوكوز يتدلى منها حبل وريدي بلاستيك معقود كمشنقة. بـــالحجرة أطباق ممتلئة بالمطهر وأطباق فارغة، وترابيزة عليها آلات وقطـــن وشاش، ودولاب زجاجي تطل منه آلات أخرى وأدوية ومستلزمات. ثمة أشباح لنهلة وعزيزة تتقافز في الأركان وتصرخ، كأنها غرفـــة للقتل، وهي تنزوي في الجانب البعيد من السرير بغرفـــة لا يخفـــف من الانقباض بها سوى جريد النخل المطل مـــن الـــشباك المفتـــوح، وبوستر علي الحائط المقابل لنخيل مثمر يميل علي مياه زرقاء.

في الجانب البعيد من السرير كانت تغمض عينيها كأنما تتجاهـــل الحجرة بكامل محتوياتها، وتتمنى وهي تتحسس الجانب الآخر مـــن السرير لو تنتابها إغفاءة فتعثر علي مكـــان راشـــد مطبوعـــا علـــي السرير بانخفاضات جسمه وفقرتيه المكسورتين، كأنه قام لتوه متنقلا بين الحجرات، يفتح كتبا ويصنع قهوة ويدخن سجائر، ثم يخرج إلي الفناء ليتأكد من وجود الحصان ويجلس علي المصطبة خلف البوابة محدقا في النجوم، يتسمع شخير أبيه عبد المجيد المنتظم، ولا يفطـــن إلي توقفه إلا بعد أن ينفتح الباب ويفاجأ به واقفا أمامه يسأله ما الذي أيقظه في هذا التوقيت؟ ويدفعها خلو مكانه فـــي الـــسرير وصـــهيل الحصان إلي القيام من السرير، والخروج مرة واحدة إلـــي الفنـــاء، فتزول الكوابيس والأحلام السيئة ويزول الرعب. يعرف عبد المجيد منذ زمن أن لهذه الحجرة ريحا ثقيلا وكوابيس مزعجة لا تـــزول إلا بالخروج إلي هذا الفناء، لذلك فإنه يسارع بفـــتح بـــاب حجرتهمـــا ويشخط في العفاريت وهو يحدق في أركانها مهوشا بيده التـــي بهـــا العصا كأنه يطرد الكتاكيت باتجاه الباب، ثم يشير ـــ كأنـــه اكتـــشف سبب الكوابيس ـــ إلي أنهما ليسا ميتين حتى يناما هكـــذا ورأســـاهما باتجاه القبلة، وأنه حذرهما أكثر من مرة ـــ متى غربـــت الـــشمس

وأظلمت الدنيا ــ من الكنس والخياطة ودلق المياه الساخنة في الحمام، أو الالتقاء بالجنازات أو الالتفات إلي النداء من الخلف، والمشي في ساعة الجمعة علي قشر الثوم والبصل والبيض. يحدقان فيه بصمت فيأمرهما بلبس ملابسهما الداخلية بالمقلوب ويحذرهما من عدل فردة الشبشب المقلوبة ويغلق عليهما الباب فينامان حتى عصر اليوم التالي. كان الأرق يزيد في غياب راشد، فلا تستطيع الدخول إلي الحجرة، تقضي الليل كاملا في الفناء، يشعر عبد المجيد بذلك حين يراها تشعل النار وتصنع الشاي وتسمع الحكايات، وحين تتهيأ للنوم فإنه يمد لها فخذه لتنام عليه كطفلة في الفناء.

تحسست مكانه في السرير فلم تجده، فتحت عينيها علي محتويات الغرفة: سرير ومحاليل وآلات وأربطة شاش وقطن. كما في الكوابيس السابقة كانت أنفاسها تختنق، وكانت لديها القدرة علي التحمل حتى تفتح عينيها وتقوم إلي الباب وتفتحه، فتجد عبد المجيد بالفناء، فيربت فخذه ويشير إليها مبتسما إذ يعلم من خروجها المفاجئ ما كانت تعانيه، لتذهب إليه في ارتياح مغمضة العينين وتكمل النوم علي ساقه، لكنها طوال هذا الكابوس كانت تعي أن عبد المجيد الذي ينقذها في كل مرة قد مات، فصرخت بعدما رأت عيناها محتويات الغرفة بصوت فزع:

ــ يا راشد!

لم تعد بنها قرية ولم تصبح مدينة، منذ نتأت بين الدور الطينيـــة والبهائم المربوطة في الحقول بيوت من طوب أحمـــر دون طـــلاء، ونبتت كما في المشاتل بعض العمارات الملونـــة افتتحـــت أســـفلها محلات العصير والمطاعم واستوديوهات التصوير ومحلات الديكور والملابـــس الجـــاهزة والحلويـــات والبقالـــة وصـــالونات الحلاقـــة وكوافيرات النساء، وازدحم علي مزلقان الرياح التوفيقي باعة الجبن والسمن والطيور والأســـماك الـــصاحية والفاكهـــة، وعلـــي طـــول الرصيف المحاذي لشريط القطار افترش الباعة بالملابس المـــستعملة والإسكافية بالأحذية والبلغ القديمة المركب لها نصف نعل والمرقعـــة بلوزات جلدية صغيرة، وباعة الكيزان الصاج والأطبـــاق وأكـــواب الشاي ولمبات الجاز والمحالب والمتارد الفخارية والقرب والأوتـــاد والفئوس والمقشات والقحوف وصدريات الـــدمور وألبـــسة البفـــت وطواقي الصوف ووبر الجمال، وطلمبات المياه الجوفيـــة وســـروج الأحصنة والبرادع والألجمة والحدوات والحبـــال التيـــل والـــشنف والغبطان وأحمال الجمال والمفـــاتيح والكـــوالين الحـــدادي والجلـــة والعيش الملدن والرقاق والكسكسي والبرغل والشعرية البلدي.

لم تعد قرية ولم تصبح مدينة. قال راشد لنفسه وهو يعبر النفـــق كتائه فيواجهه تمثال سعد الذي ظل راقدا لشهر كامل علـــي تـــراب الشارع الذي رصف فيما بعد وأطلق عليه اســـمه، قبـــل أن تثبتـــه الحكومة علي قاعدته، فيمد ذراعيه علي شيء أمامه كأنـــه جـــوال، يحدق في البعيد بقسوة رجل غامض من البرونز المغبـــر بالأتربـــة والدخان ويشير بيديه، فيبكي المارة من الأطفال ويتسمرون بالأرض

ويتبولون علي أنفسهم من فرط الرعب الذي يسببه لهم سعد باشا الواقف مستندا علي جوال يجمع فيه الأطفال ولا يمتلئ. مدينة وفي القلب قرية، حتى ولو بنت الحكومة عمارات الأوقاف وأجرت أدوارها السفلي محلات، وجعلت الساحات بين العمارات سوقا للخضار والفاكهة وحلقة للأسماك، وافتتحت علي سعد زغلول صيدناوى وبيع المصنوعات ومبني للبريد ومحلات الكساء الشعبي. مدينة وفي الأصل قرية، نمت بشكل سرطاني وعشوائي. ذهب الجمال وبقي البطء والكسل والرتابة. لم تفلح في تغييرها المدارس والكليات التي أوشكت أن تكمل جامعة ولا هذا العدد من الجرائد والكتب.

اجتاز الشارع، وميدان سعد، وكلما اقترب من البيت تسارعت دقات قلبه. كانت النسوة يقابلنه بهدومهن السوداء ويحدقن فيه ويتهامسن، والرجال بوجوههم الصارمة والحزينة يتناقلون عبارات العزاء، وخرج من ناصية الشارع جمعة أبو الجود، يتبعه إبراهيم عجورة. داهمه هاجس بأن مكروها حدث أو سيحدث. عند بوابة الفناء المغلقة، كاد يسقط لولا أن برز له محمد البيه واحتضنه طويلا علي غير العادة، وقبل أن يفلته من حضنه نظر له من أسفل وقال: شد حيلك ما تزعلش من قتل يقتل ولو بعد حين. ثم تركه. لم يعرف فيمن يشد حيله، أبيه أم زوجته، قابل زيزي فسألها عمن مات اليوم، فقالت: إمام الفنجري. تنفس بارتياح وسألها لماذا البوابة مغلقة فقالت: تانت أروى عند أندراوز. انتابه القلق، فاجتاز سوق الخضار إلي شارع المديرية، انحرف يسارا فبدت عمارة أندراوز مختبئة بين العمارات العالية. كانت أوراق الجريدة تتساقط من بين يديه ونعمات تلمها خلفه وتشير إلي فوق. لم يكن منتبها إلي أنه

يصعد السلم الذي هرول عليه أندراوز خلف أبيه بالجفت، ولــولا أن هبط أبوه السلم بسرعة لفعلها الحكيم أندراوز وشج رأســه بالجفــت عندما ظل يعيد ويزيد في وصف حالتــه دون أن يــدرك أن حلــم أندراوز قد انتهى وهو ينبهه إلي أنه أخذ أكثر من وقته، وأنه اعتدى بذلك علي وقت المرضى الآخرين فيقول عبد المجيد: يــا مــستعجل عطلك الله. يا حبيبي خش في الموضوع. صبرك يا حكيم باشا، كل واحد له نبي يصلي عليه. خللي بالك ــ لا مؤاخذة ــ طويل وانــا جاي لك في الكلام. ولما اكتشف أندراوز أنه مــصمم علــي بــدء الشكوى تحديدا من تلك اللحظة البعيدة التــي خدعــه فيهــا وحقنــه بالمخدر ولم يقطع من كتفه كما طلب نصف كيلو لحم لولده راشــد. انطوت شكواه علي العتاب الحار أكثر من عرض آلامه، وكلما نبهه كان يعود فيستأنف الشكوى من المنطقة التي أوقفــه عنــدها. خلــع معطفه بعصبية عندما تبين أنه لن ينتهي فيما لو تركه يحكي، وكتب العلاج بسرعة ورمى الروشتة في وجهه:

ــ بلاش شغل الجنان ده يا فلاح.

صمت عبد المجيد فجأة، وقام معتــذرا عــن الإطالــة، فلــبس أندراوز المعطف مرة أخرى. أثنى وهو باتجاه الباب علــى علمــه وأخلاقه وذوقه وأدبه وتحمله لهموم المرضى، وفيما بدا أنــه قبــول للاعتذار، غير أندراوز من نبرته، وقال إن من حقه عليه أن يسمعه لكن وقت المرضى الآخرين ليس ملكه كما يعرف. أشعرت إيمــاءة عبد المجيد المنكسرة أندراوز بالحرج لأنه احتد بشكل لا يليق علــى مريض ولم يكن يصح، فقام خلفه حتى الباب يربت كتفه، مما شــجع عبد المجيد على الاستدراك بخبث:

ــ بس في حاجة صغيرة جدا تنقصك يا حكيم باشا.

وللمزيد من الترضية، نظر إليه أندراوز باهتمام منتظرا أن يذكر هذه الحاجة الناقصة، فتردد كأنه خائف غير أن الحكيم باشا شجعه، فمال عبد المجيد على أذنه ـ وعيناه تنظران إلي المرضى الجالسين في الصالة ـ وقال بصوت عال:

ـ تنطق الشهادة!

ضج المرضى بالضحك، فسحب الجفت من علي المكتب، وهرول خلفه على السلم لولا أنه أسرع خشية أن يفعلها أندراوز ويفتح رأسه.

وكما تناقل العاملون في معصرة أبى سرج ومحلج العطار ووابور الثلج إسهامات الحكيم أندراوز في إنشاء المدارس والملاجئ وعلاج الفقراء في عيادته وتبنيه برامج غير تقليدية لمكافحة الأوبئة والأمراض المتوطنة، فإنهم لم ينسوا نوادره مع عبد المجيد، فيضحكون حتى تدمع أعينهم، ويطلبون له الرحمة، ولا يستبعدون أن يكون أندراوز قد نطقها بالفعل ولو في السر، ومن ثم كانت مطاردته لعبد المجيد بالجفت لعدم إثارة القلق، خاصة أنه كان يعامل المسلمين بمودة، ويحفظ آيات كثيرة، وصلت أحيانا إلي نصف القرآن، حتى قيل إنه رد الشيخ إبراهيم عجورة وجمعة أبو الجود وهما يرتلان سور مريم وهود والنمل، ودائما ما يخلصون في نهاية الجلسات إلي أنه ـ والعلم عند الله ـ رجل صالح اجتمع علي وداعه الكثير من أهل المدينة والفلاحون من القرى بالطواقي والجلابيب البلدي علي الدواب وإن ظل لغزا محيرا حتى في مقبرته التي أقيمت على أرض محايدة.

هبت رائحة برتقال بعنف فالتفتت. رأته قادما في بهاء يدفع باب الحجرة. سرت قشعريرة في ثدييها فاعتراها الاحمرار والخجل.

ضمتهما بساعديها كما كانت تحتــضن كتــب المدرســة وحاولــت النهوض من السرير فلم تستطع. انحنى علي كفها يلثمه، فانتقل إليها الدفء وشعرت بثدييها يتفتحان واللبن في عروقهما يسعى للخروج. نفس القشعريرة التي ســرت فــي جــسدها وهــم يــسندون إليهــا الميكروفون، دون أن تعرف اسمه لتطلب منه الخروج أو إعلان مــا يريد، متعجبة من هذا اليقين الذي كان يــساورها بأنــه سيــستجيب لندائها، هي التي لم تكن علاقتها به قد تجاوزت اليوم الواحــد، قبــل أن يقتحم القناصة ورجال مكافحة الشغب والقوات الخاصة المجلــس ذي الطابقين، يحيطهم كردون من القوات، وتسد العربات المــصفحة مداخل المدينة لتمنع تقدم الناس من طريق الكــورنيش أو الــشوارع الصغيرة المتفرعة منه باتجاه شارع سوق الخضار:

ــ اخرج من أجلي أرجوك..

نفس القشعريرة وحشرجة الكلام ورائحة البرتقال التــي ســرت بخلاياها فتلعثمت ولم تستطع أن تكمل. أطفئــت الأنــوار وانطلــق الرصاص من جميع الاتجاهات نحو الشبابيك والمنــاور، وغطــت القنابل المسيلة للدموع علي رائحة البرتقــال، واســتمرت دفعــات الرصاص لمدة تزيد على ربع الساعة حتى امتلأ المكــان بالبــارود المحترق وامتلأت الصحف بمحللين يفرقون بين البطولة والجريمة، وأطباء نفسيين يــشرحون عــدم القــدرة علــي التــآلف والتكيــف والاضطراب النفسي، وأجمع المحامون ــ بعد أن حولته المحكمــة للمصحة النفسية بعد علاجه بقسم العظام والأعصاب بالــدمرداش ــ على أن الحدث في حد ذاته بطولة، غير أن فارق التوقيت لم يكــن في صالحه.

ظل مائلا عليها بجسده يلثم يديها ويبكي:

ـ كيف حالك؟

بيدها التي يلثمها قربت يديه من بطنها ودمعت:

ـ كما ترى ..أنتظر.

كان صوتها متهدجا، كأنها خائفة. أخذ كفها نحو صدره بحنان:

ـ قلبي معك.

صرخة طويلة. غليظة. جحوظ في العينين وجرش علي الأسنان وذهول. كشخص يعدم علي كرسي كهربائي. صـــرخة تجاهلـــت ــ بخلاف الصرخات الحادة السابقة ــ تعليماته بالحذق لأســفل، فـــي نفس واحد غير متقطع وكتم الصوت، وتوسيط الجسم بلا ميل إلـــي اليمين أو الشمال، وفتح الساقين قدر المستطاع كي تخـــرج الـــرأس. "برافو.. طلقة أقوى". خلص الرأس ولفها، فاعتدل الكتفـــان باتجـــاه الخروج. مال بالرأس لأسفل فخرج الكتف الأعلـــى. عـــاد بـــالرأس لأعلي فخرج الكتف الأسفل، وانزلق الجذع والبطن، وقبل أن تفلـــت الرجلان كانت يداه تكبلهما وترفع المولود مقلوبا ومدلى في الهـــواء. بنت. ضرب ضرب. صرخت. انتصر راشد، كـــان يريـــدها بنتـــا جميلة. ابتسمت في إعياء. كانت تراه في أحلامها ولدا.

ــ أروي!

كانت صامتة كأنها ستنام. بدا الجزع في ندائـــه. المفتـــرض أن تشعر بالراحة بعد أن راحت آلام الولادة، لا أن تكون رخوة هكـــذا كمن ترغب في نوم عميق. فصل المشيمة عن الرحم يتبعه صـــرخة تقترب من صرخة الرأس، لكنها انكمشت فقط كأنمـــا مـــن البـــرد وبإعياء لا يتناسب مع ما تشعر به من ألم قالت بصوت غير مفهوم:

ــ غطيني.

لم يعتد فقدان التواصل بعد الولادة بهذه الدرجة، والوالدة ينتابهـــا صحو مفاجئ، وابتسامة مجهدة، ربما ينتابها استرخاء المتعـــب، لا هذا النوم المفاجئ. خطأ ما لابد حدث. اطمأن أولا علـــي النـــبض. سريع وخافت. يسرع عادة بعد الولادة، لكنه يسرع أيضا مع النزيف

الشديد. تراجع عن غسل يديه حين بدا غير مستريح. خلع قفازيه ليقيس الضغط.

ـــ أشرب.

حجر ثقيل ضغط على صدره، حين رآها تلوك لسانها الجاف في حلقها، وتبلل بريقها الجاف شفتيها. قاس الضغط فتلوث ذراعها المرتخي بالدم وتلوثت أذنه. لم يتمكن من قياسه بشكل دقيق. لا تهم الدقة الآن بقدر ما يهمه أن يعرف ما إذا كانت سرعة النبض من إرهاق الولادة أم من نزيف حقيقي. منخفض لكنه معقول. أيكون السبب كتلة الدم المتخثر التي أعقبت انفصال المشيمة؟ بدأ يشعر بالقلق الحقيقي حين ضغط الرحم من أسفل البطن، وكان الدم ما زال ينزل. أروي؟ يضغط أكثر فيتوقف قليلا ثم يواصل النزول. علق الجلوكوز، ثم لبنات الرينجر. أيهما أجدى، أن يتشاءم فيثبت كانيولا أخري قبل اختفاء الأوردة لتعليق محلول الملح في الذراع الأخرى لأنه بعد قليل قد لا يتمكن إلا بالفتح جراحيا علي وريد، أم يتفاءل ويستمر في الإجراءات الأولية لوقف النزيف؟

ضغط الرحم وجفف الدم واستكشف قناة الولادة بكاملها من أسفل حتى عنق الرحم فوجدها سليمة. لا تمزق يستدعي خياطة فمن أين ينزل الدم؟ أروي؟ ازداد ثقل الحجر واستشعر فداحة الخطر حين اكتشف أنه وحيد، لا يملك سوى يدين، ليعلق في وقت واحد المحاليل، ويضغط الرحم ويدلكه، ويطمئن علي الضغط كل خمس دقائق ويستكشف مرة أخري الوضع من أسفل، ويتعامل مع النزيف بكسر الأمبولات وحقنها في المحلول. لكن التدهور بدا سريعا وغير متوقع ويتطلب دما طازجا.

لو كان في المستشفي لاستنفر كل شيء في لحظة: يـأمر فتثبـت الكانيولا وتعلق المحاليل. يصرح بكيس دم، فتؤخذ عينة دم ويجـري اختبار توافق وتعرف الفصيلة ويصرف الدم ويعلق. يقول: تخـدير، فتحضر غرفة العمليات حالما يستدعي طبيب التخدير، وتنتشر حوله الممرضات والشغالات. لكنه في العيادة. وحدث ما خشي حدوثـه، فبأي شيء يبدأ وكيف يفكر بشكل منظم؟

ــ ما الذي يحدث بالضبط؟

لم يكن متفرغا للرد علي راشد. والذي يحدث بالضبط لا يعرفـه حقيقة. إنما تتركز مخاوفه من نزيف بعد الولادة، الذي تبدأ أسـبابه الخمسة عشر بتهتك بسيط في المهبل لحظة خروج الرأس، وتنتهـي بانفجار الرحم. ويتراوح وقف النزيف من مجرد تدليك الـرحم مـن البطن بيد واحدة، أو أخذ غرزة واحدة في قطع صغير، أو حشو إلي استئصال الرحم بالكامل كي يتوقف فقط النزيف. وأحيانا يا راشد لا يقف.

ــ لماذا لا ترد؟ ..هل أساعدك في شيء؟

لم يعرف راشد الذي كان يهتم بأشياء هامشية كتغطية زوجته، أو تنظيف المولود الذي اكتشف منذ قليل أنه أنثى من الـدم ومخلفـات البطن وتلاوة الأذان في أذنها، أو الرأفة في ضربها علـي ظهرهـا وهي معلقة من ساقيها كي تنتبه وتتنفس وتصرخ، لـم يعـرف أن وجوده في الحجرة ولو بصمت يمثل إعاقة، وأنه لـيس بوسـعه أن يساعده حتى في طلب سيارة الإسعاف، لأنه سيـسأله عـن الـرقم، وسيطلب، وسينتظر أن يرد عليه مركز الإسعاف، ولن تسعفه اللغـة والكلام فيكثف الطلب والتشخيص للجالس علي الطرف الآخر مـن الخط، ليكتب في دفتره اسم المبلغ واسم الحالة والتشخيص والعنوان

وأقرب الطرق للوصول إليه، ثم يقول أو لا يقول: شكرا، ويضع السماعة، ليرد مرة أخري علي اتصال مركز الإسعاف الذي يتأكد من نمرة المبلغ وجديته. وإلي أن يطلب راشد الإسعاف تكون الحالة قد تدهورت بشكل مريع.

راودته فكرة الإسعاف لكنه أحجم عنها. لا يمكن السير في اتجاهين في وقت واحد. لابد من قرار وإن كانت كل الخيارات سيئة. اختار التعامل مع النزيف، خشية أن يضيع الوقت وأملا ـ كما يحدث كثيرا ـ في أن يتوقف النزيف وحده دون سبب طبي معلوم سوى رغبة هذا الجسد في الحياة، وقد لا يتوقف النزيف رغم جميع الإجراءات ونزوله بملابس الولادة دون نقود أو هوية باعتباره الوحيد الذي لا يصح أن يفارق الحالة، فلا يضيع الوقت ويباشرها في الطريق باعتباره أعلم المرافقين بإجراءات الدخول، حيث يدفع بالحالة رأسا إلي العمليات في أقصر وقت ربما دون تذكرة ومع ذلك قد لا يتوقف النزيف لا لسبب طبي معروف إنما لرغبة الجسد الذي ينزف في الموت.

ازرقت أروى الصغيرة. جأر من أعماقه: يا رب. وثقل الحجر على صدره كاد يقضي عليه. أطباء الولادة هم أقصر الأطباء عمرا علي وجه العموم باستثناء من يعتزل المهنة قبل الأربعين، يليهم أطباء التخدير الذين ينحصر توترهم علي أول لحظات التخدير، والتي ما إن تمر بسلام، يزول التوتر طوال العملية. لماذا يتذكر هذه الإحصائية الآن؟ ولماذا تأتيه نهلة عبد الواحد؟ جذب المولودة وكرر شفط المخاط من فمها، كي يتيح للهواء الدخول إلي الصدر، فاحمرت. عاد إلي الأم: أروي! وجد النزيف حنفية مفتوحة. حقن وحشو وضغط وتدليك: أروي! قطن. شاش. محاليل. من يغير

الطبق الكبير أسفل السرير الذي امتلأ بالدم والقطن بـــشكل مريـــع. الصغيرة ازرقت يا دكتور. كان يبحث عن وريد في يد أروي. ترك ذراعها ونظر إلي الصغيرة. عادت إلي الزرقان وكرشة النفس. أمر راشد بنقلها إلي حضانة الأطفال المبتسرين. خطاب تحويـــل؟ هـــل الوقت يسمح بمسك قلم؟ أمسك بذراع أروي يبحث عن وريد آخـــر. أروى!

هذا طريق لا تعرفه، ولا تجدي فيه أقوال من مروا. تتوه وتصحو. لا تسمع حتى صوتها. فقط دم ينساب منها ولا أحد يفهم إشاراتها. من أين يأتي جفاف الحلق الشديد؟ الدنيا غائمة أمام عينيها. أمعاؤها كأنها تخرج من أسفل. لا تريد سوى أن تشرب. كأن أحدا يقبلها. كأن طفلا يبكي. عطش شديد وظمأ لا يرتوي. غيوم مرة أخرى وإظلام كامل ولا جريد نخل عاليا. من أغلق النافذة؟ تهبط لأسفل كأنها تغوص، فلا دكتور ولا راشد. كستارة ثقيلة أغلقت. الأصوات البعيدة خفتت تماما. لمسات باردة لهواء حاد وبارد كلما مرق السرير بها كحصان.

ربوتان عاليتان. بينهما هوة سحيقة. تيه. والحصان البني ذو القوائم البيضاء الذي استراح، جمح في حقول من ليمون ومروج من نخيل. قدماها مثبتتان بالسرج ويداها ممسكتان باللجام خشية السقوط. خلفها علي الدين، خادم الملك. لاحت البوابة التي لفظتهما، والحراس الذين رفعوا أسلحتهم للتحية يبدون غاية في الوضوح، ولم يكن عليها سوى أن تلوح لاثني عشر ألفا ومائتين وخمس وعشرين من الوصيفات والحريم، وستة آلاف غلام يقفون في شرفات القصر، يتبعها علي المنحدر موسيقى ريفية وألوان صاخبة لصبية بطواق كورود بيضاء وبنات بفساتين كنوار تفتح. لم تكن بها رغبة لأن تحصي كم من الوقت مر والحصان البني يجري بها وسط هذه المروج، ولا كم من الزمن مر حتى تقترب من هذا القصر لترى الشمس ساطعة علي التفاحات الذهبية الثلاث، ويتحطم الباب الذي سد بالطوب بعد خروجها منه لأول مرة، ويتناثر الطوب في كل

اتجاه، فتنفتح البوابة الكبيرة التي أعلاها برج وسارية بثلاث تفاحات ذهبية، وتبين الطرق الجانبية مدرجة بالأشجار، والدرجات الحجرية المؤدية إلي الحمامات الملكية، وتصرخ في فرح حين تـــراه: عبـــد المجيد الصعلوك .. مضحك الملوك؟ فيحني رأسه ويبتسم، ويعـــرف الحصان وحده طريقه نحو بهو الريحان، والبركـــة، ثـــم الأجنحـــة الملكية، وبهو السفراء وساحة السرو وقاعة الأختين وفنـــاء الأســـود بنافورته المرمر التي يحمل حوضها اثنا عشر أسدا من رخام أبيض في دائرة. يجوس الحصان داخل الأبهاء الملوكية الفخمة، فتقرأ فـــي كل ركن من أركانها سورة الملك منقوشة بكاملها.

ـ خليك مع الحالة يا دكتور.

جاءته الأوامر. صعد سلمات الهليكوبتر مرة أخري وظل برفقة الحالة. ضابط صف ينظف طائرة رابضة في دشمة، لمست يده ـ دون أن ينتبه ـ مزلاج النجاة أسفل الكرسي، فانفلت الياي، وانطلق المقعد به لأعلي. ارتطم بالسقف الزجاجي المغلق للطائرة الحربية فتهشم واصطدم بسقف الدشمة الخرسانية وارتد إلي الأرض فتهشمت عظامه. أمام استقبال مستشفى الجامعة، جاءته إشارة ليتجه بسيارة الإسعاف إلي الاستاد، في انتظار هبوط الهليكوبتر. سلم الحالة وفي منتصف سلم الطائرة، جاءه الأمر فلم يعرف إن كان أمرا باللاسلكي، أو أنه صوت مسعفي الطائرة، أو كان نداء داخليا صرفا.

صعد الطائرة مرة أخري قلقا كمن نسي شيئا، وأغلق الباب. كان يطمئن بين الحين والآخر عليه، يسعفه بالمحاليل والمسكنات والمهدئات. في ألماظة كانت سيارة أخري تنتظر لنقل الحالة إلي عبده باشا، المستشفي الفرنساوي. أسعده أن يصل به حيا، وأن تفتح بوابات المستشفي بهذه السرعة، وأن يهتم الموجودون في الاستقبال، فتفرغ حجرات الأشعة، وتبتلع المصاب ردهات وحجرات، حتى وجد دوره ينحسر تماما، يتابع ليس أكثر، يعيد وصف الحادث بصفته طبيب المطار الذي رأى الحادث، كان يرجح أن تكون الإصابة ارتجاجا شديدا أو نزيفا بالمخ مع كسور مضاعفة بالعمود الفقري والساقين. قالوا: شكرا، فخرج.

قبل البوابة بقليل اكتشف نفسه بالبالطو الأبيض المكرمش علـــي فانلة داخلية، وبنطلون زيتي وشبشب ميري، منذ خرج مـــن عيـــادة المطار، لا هوية ولا نقود. تجول بالمستشفي مرة أخـــرى ليتعـــرف علي أحد الزملاء، فلم يجد. وقف حائرا حتى رأى الرجل النازل من الباب الأمامي للأتوبيس يقول كأنه يذكره: السيدة؟ فصعد من البـــاب الخلفي. تذاكر. آثر الصمت علي شرح ما حـــدث. تـــذاكر. تفـــادى نظرات الركاب الذين كانوا يوسعون المكان له كمختل. تذاكر! وقف صامتا، ذراعاه علي صدره، كأنه نوى للصلاة، تتأمل عينـــاه الـــذين يصعدون. تذاكر يابهوات هناك. ضايقه الصوت. صـــار الأتـــوبيس كتلة مضغوطة من البشر، فلم يعد ثمة صعود ولا نزول، فقط ضغط ودفع وعرق واختناق. تذاكر الأخ بالبالطو. صرخ: من أين يجـــيء هذا الصوت؟ صخب أتبعه سكون. حملق في الرؤوس، فرأى قامات تنحني كما في الركوع. لم يعد غير سكون يقطعـــه صـــوت آمـــر وملحٌّ: اسع. حملق أكثر في السقف وسط هذا الزحـــام. اســـع. رأى نقوشا وزخارف ولمبات مضيئة، وأبيات شعر مكتوبة بالكوفي فـــي سقف القبة الملونة. الأخ بالبالطو.. اسع وصل علي النبـــي. التفـــت عن يمينه، فامتدت يد جاره لتصافحه بحرارة، كأنـــه يودعـــه: مـــع السلامة. التفت عن شماله فوجد ممرض عيادة المطار:

ــ حرما يا دكتور.

صافحه باستغراب، ونظر لجدران مصلي المطار الباهت. غابت ملامح المقام والفرش الوثير في مسجد السيدة الرئيسة أم هاشم. قال: جمعا وصمت. صمت تماما. هل صار من مجاذيب السيدة؟

كان قلب نعمات قد انقبض في الليلة الكبيرة حين ضعفت الأنوار وبدأت الخيام تطوى، وسيقت الخراف والعجول والماعز المـــستبقاة

من المولد لتنحر أمام أعتاب البيوت، وتخلخل في بطء ما بني خلال أسبوعين، وجمع الناس علي عجل ما تبقي مـــن الــشاي والــسكر والقرفة والخبز الناشف والكحك، ورصوا الحلاوة والحمص ولعــب الأطفال والطرابيش بعناية لتوزع مع اللحوم علي الأهل والجيـــران ممن لم يشهدوا المولد، فلا تنقطع لهم عادة.

انقبض قلب نعمات، وظلت ساهمة والقطار يعود، واستشعرت ما سيحدث والمحطة تمر أمام عينيها وينزل زوجهـــا دون أن تـــستطيع النزول، فيتسحب القطار إلي باب الحديد، وتخلع نعليها مـــن بـــاب الخلق حيث يبدأ زمام السيدة ومن الأدب ألا تنتعل شيئا حتى تتلمس أصابعها المقصورة المذهبة، متوسلة بصوت متهدج أن تنقذها مـــن مصطفى علوان الذي اشترط أن تكون طالقا بالثلاثة لو عادت مـــن المولد دون أن تسدد الدين، وأصر أن يرمي زوجها أمامـــه اليمـــين ويعلقه بانتهاء مولد شيخ العرب وعدم القدرة علي السداد، فوعـــدتها الرئيسة ألا يفوتها بعد الآن مولد، وأمرتها أن تأخذ من أحمـــد باشـــا راشد ثلاثين جنيها، وإن طلب دليلا، فهو لا ينام حتى يصلي علـــي جدها كل ليلة مائة مرة. انتبهت من غفوتها فقبلت الأعتـــاب وهـــي ترفع رأسها كمن تفيق من حلم لم يكتمل، خرجت تتفرس الوجوه في ضوء أعمدة الإنارة الشحيحة حول المسجد، خفيفة كمن تسير علـــي الماء بين الدكاكين المغلقة والمقاهي التـــي ترفـــع أبوابهـــا الـــصاج استعدادا ليوم جديد. سألت رجلا جالسا علي المقهى يرتدي الخـــيش، أين تجد أحمد باشا راشد. انتصب الرجل مرة واحدة وسار أمامها:

ــ وعايزة إيه من أحمد باشا راشد؟

ــ تلاتين جنيه!

ــ بتوع إيه؟

ـــ أصل الست أم هاشم هي اللي قالت لي.

ـــ أيوه قالتلك إيه بالضبط؟

ـــ بتقولك الست هات تلاتين جنيه بأمارة ما بتصلي علي جــدها ميت مرة قبل ما تنام.

كان يتوقف بين الحين والآخر كأنه لا يصدق:

ـــ أيوه قالت لك الست إيه؟

كررت ما رأته تماما. لكنه كان يتوقف كل درجتين ويمــصمص شفتيه، ويتساءل:

ـــ الست اللي قالت لك كده؟

ـــ غريبة! سمعيني تاني.

ـــ لو مش هتوصلني للباشا، قولي امشي، لكن ماتستهترش بيه.

ونزلت السلم فانزعج الرجل وفتح باب شقة قديمــة وعــد لهــا تسعين جنيها وأغلق الباب وهو يقول لها: يا عبيطة! فــي المــصلي علي النهر بعد ذلك بسنوات قال له سيد عبــد العــال: إن نعمــات عبيطة بالفعل لأنها لو كررت ما قالته رئيسة الديوان علــي مــسامع الباشا لأعطاها عن كل مرة ثلاثين جنيها.

مع أذان الجمعة هبطت نعمات من القطار، تلطم خديها وتحــدق في كيس النقود الفارغ وتفتش في ذهول بهدومها عن النقود، فلجأت إلي الشوارع المهجورة والمقابر، وحول مبخرة البرتقــال، وعلــي حافة الرياح التوفيقي، تحوم حول المدينة هربا من مصطفى علوان، الذي أجبر زوجها علي تنفيذ يمينه ليستمتع بمطاردتها كغزال شــارد بجرمها الدقيق وعينيها الخضراوين. يطاردها بحصانه طوال النهار ويعود متعبا، لا يحرمه من النوم سوى نباح كلاب توشك أن تنهشه، إلي أن استيقظ ذات صباح علي عضة كلــب حقيقيــة تنــزف مــن

ظهره، طهرها له أندراوز ثم حوله إلي عيادة الكلب ليحقن في جدار بطنه بمصل الكلب. ولم يتبين مصطفي علـوان صـاحب مـصانع الطوب إن كانت كلابا حقيقية أم مجرد هواجس إلا في العضة الثالثة حين خاطب أندراوز البندر فانتشر فـي المدينـة صـائدو الكـلاب الضالة. سبع عضات جعلت مصطفى علـوان يـصرخ حـين رأى نعمات لأول مرة برفقة سبعة كلاب، ويعترف علي الملأ بأنه تـاب عن إقراض النقود بالربا ومطاردة النساء، وانتظم في التـردد علـي جامع البحر وتبرع بمائة ألف طوبة لمساجد الـضعيف وعـصفور وأبي نوار بيد أنه لم يستمتع بالنوم إلا بعد أن أخذه محمد البيه إلـي شاطئ النهر وأمره أن يرمي اليمين بالثلاثـة علـي نعمـات، وأن يطلقها أيضا في الظاهر علي يد مأذون شرعي، لكن نعمات كانـت في ذلك الوقت هائمة في ملكوتها الخاص، لا تعي أنها تنطـق كـل حين بما في بطون الحوامل، أو تنبئ الـبعض بمـا يـأكلون ومـا يدخرون في بيوتهم، إلي أن التزمت الصمت تماما علـي رصـيف المستشفى الأميري.

كان يقاوم النزيف بتدليك الـــرحم وحقـــن المحاليـــل وأمبـــولات الميثرجين والكالسيوم والإنزابروست، وحشو القطن، وكان الحجـــر الثقيل يرتفع قليلا عن صدره كلما هدأ النزيف، فيطمئنها بنبرة تـــشي بالفرح، وعندما تشير له متسائلة عن حالـــة أروى الـــصغيرة التـــي ذهب بها راشد إلي مستشفى الأطفال فإنه يقول بنفس النبرة المتفائلة إنها جلسة في الحضانة تحت خيمـــة الأكـــسيجين وترجـــع جميلـــة وصحيحة، وأن عليها أن تكون مع نفسها فقـــط فهـــؤلاء الأطفـــال باندفاعهم الفطري نحو الحياة، يتخطـــون ظروفـــا أكثـــر خطـــورة وينتصرون فقط برغبة الحياة. تشير إليه بأنها مجهدة فيقـــول إنهـــا ستنسى كل شيء بمجرد عودة أروى الصغيرة، ويصير مـــا حـــدث مجرد ذكرى، تثيرها الصورة التي ستوضع عما قليل في التـــابلوه. بدت مطمئنة إلي كلامه الذي يسرى كالمخدر في جسدها وتغمـــض عينيها على ابتسامة في سلام. انتهى من إيقـــاف النزيـــف فوجـــدها رخوة وغير منتبهة لما يفعله، كطفلة خلدت إلي نـــوم عميـــق علـــي بساط سيطير، شفافة تبتسم. تناهى إليه أذان العـــصر متراميـــا مـــن جامع البحر رائقا ومرجعا بالصدى كأنه الفجر، ولاح الكـــون فـــي سكونه وصمته المطبق أشبه بكائن خرافي هاجع ونـــاعس. جالـــت عيناه في الغرفة فراعته كمية الأمبولات الفارغة والقطن وطبق الدم الممتلئ.

ـــ أروى .. هل أنت منتبهة؟

لم ترد. كانت نظرتها المبتسمة والمتطلعة قد تحولت إلي نظـــرة مغادرة، ثابتة ومستسلمة، فيما ترامى الصوت من كل اتجاه مرجعا:

وعند زوال الحس فالجرح فرحة وذي رتب فيها اتساع المدارك
ألا إنما يسري المريد علي يدي وكل فتى ينأى فليس بسالك

ارتج السرير بعنف. انتقلت الحجرة من مكانها ثم عادت. كواقف علي سطح مركب اصطدم بالشط، اختل توازنه. ارتج كل شيء بعنف مرة أخرى، فسقط التليفزيون وانفصلت مروحة السقف.. طقطقة أشياء تنفصل عنوة، ودوي كتل تصطدم بعنف كأنما عمارة أندراوز كلها تتزعزع. لم يعرف منذ انبثق من الحائط الذي تصدع نور كأنه البرق ما الذي يفعله، يصرخ أم يهرع أم يثبت في موضعه حتى ينتهي كل شيء؟ كان النور أكثر نصوعا من البرق، فلم يستطع أن يفتح عينيه. مدت له راحتها فانجلى عن قلبه حجاب. ضوء أبيض لنهار يطلع في سماء صافية، يواصل الطلوع والبياض وهي ترفل أمامه كقطعة من بللور، تزداد شفافيتها كلما اخترقت به حجابا. لم يعد يشعر بملمس راحتها، إنما يجذبه خلفها الضوء وهي توغل في نور خالص، حيث لم تعد تنزف. اخترقت به سبعين حجابا وأستارا خفيفة وكثيفة، نحو شمس كبيرة مشرقة. كانت في انطلاقها تزيح بذراعيها الأغصان الرقيقة فتنبعث الموسيقي من كل الأجواء، ويسيل الضوء كما الماء. مرا بأفراد وأقطاب وأوتاد وأبدال وأشبال وأولياء وأمجاد وصلحاء وأنجاب ونقباء وأحباب وأكياس. اخترقت حجابا فرأى رجلا بعباءة خضراء يخطب في حشد كبير من أهل الأحوال المنشغلين عن بعضهم، كل في شأنه، العارف والمحب والشغوف والذاكر والمتفكر والمعتبر والناطق والصامت والمستغرق والصائم والقائم والهائم والصائم المفطر والصائم الصائن والقائم الدائم والنائم الواصل والواصل الساهر والهائم الفاكر والواقف الذاهل والذاهل الحائر والحائر الذاكر والداهش الواله والواهم الباكي

والباسم الشاكي والمقبوض المشدود والضاحك المستبشر والخائف الوجل والمختلط والمتوله والموله والصائح والنائح. وكان ينشد فيهم:

ولا خوف عليكم حيث كنتم فأرض الله خردلة أمامي
فإن شئتم ذروني حيث أقضي بعلمي في البداية والختام
فما غيري بدنياكم عليم وما قمتم بأخراكم مقامي

ينشد فيتمايلون. ينشد فيترجمون ويصرخون بألسنة مختلفة، ويغلب عليهم الحال فيمزقون الثياب، ثم يتوبون توبة الهداية وتوبة الكفاية، ينشد فيتوبون توبة الخواص عما خطر لهم واختلج في أسرارهم. اخترقت حجابا. لم تعد عيناه قادرتين علي التحديق كلما اقترب من شمس كبيرة ومضيئة. اخترقت حجابا. لم يعد يرى الرجل بالعباءة الخضراء. فقط صدى صوته الذي يسمعه. هل كان شيخه سيد عبد العال؟ لم يعد يشعر بملمس راحتها وهي تزيح الأستار. كأنه وحيد إلا من صدى صوت ينشد:

وإن آنست نارا فاتبعني تجدني عند حالكها ضياء
وإن أوجست كان الأمن عندي لتسمو الروح آمنة سماء

من أي اتجاه يأتي الصوت؟ لم يعد يراها أو يري الابتسامة الشاحبة ولا ملامح الرضا والتسليم التي كانت في وجهها. كان حريصا هذه المرة ألا ينشغل بأي شيء، فلم يلتفت. صار غير منتبه إليها تماما. كان مستغرقا ونور الإشراق يغمر كل شيء، فأخذه حبيبه من إياه وأفناه عن فناه، ونودي: ماذا تري الآن؟ فلم يرد. كان يراه وحده حينئذ، لا شيء معه، لا غيره ولا سواه، يحيط بكل شيء، ماثل في كل شيء. قيل: فماذا تريد؟ فلم يقل حتى: أريد ألا أريد.

أمام مزلقان قطار الزقازيق علي الرياح التوفيقي، توقف باهي السائح عن الإنشاد. كان قد عبر شارع المديرية لأول مرة في الصباح، وانحرف بالعربة حتى التمثال، وعبر النفق أسفل السكة الحديد رغم زحام سوق الإثنين، وعند المزلقان برك الحصان كما يبرك الجمل، فتوقف الصبي عن دق الدف، ونزل باهي عن العربة، وتوجه إلي عامل المزلقان والشرطي المرافق له وكانا يأكلان. السلام عليكم. عليكم السلام. ألا يوجد هنا مكان يصلح للمرء أن يموت فيه؟ ضحك عامل المزلقان والشاويش، وأشارا إلي مكان قريب تظلله ست الحسن. كان غارقا في العرق حتى إبطيه فشكرهم وذهب حيث أشارا، فوجد حنفية فجدد وضوءه، وصلي في مصلي عامل المزلقان، ثم توجه إلي المكان الذي أشارا إليه، فمد ساقيه، ثم مات.

استولي الهلع علي الناس في الشوارع، وهرع المصلون من جامع البحر، ونظروا في الشوارع في ذهول، وترك الباعة محلاتهم مرعوبين، فالتقوا بالأفواج التي خرجت من محلج العطار. وكان راشد لا يشغله شيء سوى الوصول إلي مستشفي الأطفال وهو يحمل طفلته الزرقاء الملفوفة بالقطن، ويشير إلي السيارات فلا تتوقف، دون أن ينتبه حتى إلي سبب الجلبة، أو يدرك سوى أن رجليه ارتبكتا قليلا، كأن الأرض تحركت، أو اهتزت، وحين هم بدخول المستشفي وجد أفواجا من المرضي والممرضات والأطباء يستقبلونه في ذهول، فوق مكتب الطبيب بالاستقبال وضع طفلته، فقال الطبيب علي الفور: دخول أطفال مبتسرين، ثم نادى الممرضة،

التي بكت ورفضت الطلوع. وقدمت تلهث نعمـــات الملـــط أمامهـــا الكلاب السبعة في حالة رعب، وهي تضع صرة كبيرة علي المكتب وتهز راشد في رجاء. وبصعوبة بالغة فهم منها أن عمارة أنـــدراوز انهارت، وقد شقت الغبار امرأة تمتطي حصانا بنيا ذا قوائم بيـــضاء، وهذه الصرة سقطت منها، ثم تركته لتعود إلـــي جلـــستها المعتـــادة بجوار سور المستشفى الأميري. كان بالصرة سبع مكعبات من ذهب خالص، وغزالة نافرة من الفضة وعقد من اللؤلؤ المنفرط، وثـــلاث تفاحات من ذهب، وسورة الملك مكتوبة كاملة بمـــاء الـــذهب علـــي بساط من سندس مطوي بعناية.

لعشر سنوات ظل الرجل ذو الجلباب الأبيض مواظبا علي جلسته القرفصاء جاعلا ظهره لعمر أفندي ووجهه إلي عمارة أندراوز التي انهارت، وأعيد بناؤها وتسكينها، دون أن يبرح جلـــسته تلـــك كـــل إثنين متطلعا إلي شرفة في ذهنه هو، بـــين يديـــه أوراق (شـــراب الوصل)** التي اصفرت عن مائة وأربع وعـــشرين قـــصيدة تبـــدأ بالتائية وعدد أبياتها أربعمائة وثلاثة وعشرون بيتا. لا يقوم إلا بعـــد أن يتلوها كاملة، حيث يكون جسمه قد تصبب عرقا، حتى أن نجـــاح تشفق عليه وتصر ــ ربما بدافع امتنان قديم ــ أن تناوله ســـاندوتش وكوب ماء من مطعم النجاح أسفل العمارة الجديدة، فيرفع يديه خلف أذنيه في صمت وينصرف كأنه لا يراها، دون أن تعـــرف إن كـــان يشكرها أم ينوي للصلاة وهو يتجه إلي حيث لا يعرف أحد.

بعد أن تجاوزت سيارة حمراء عمـــر أفنـــدي بمـــسافة، توقفـــت ورجعت إلي الخلف بحذاء الرصيف. نزل صاحبها وأغلـــق البـــاب بسرعة، متجها إلي واجهة عمر أفندي كأنه يبحث عن شيء تـــذكره

فجأة. وفيما عثر عليه وقرر التوجه للـداخل، انتبـه إلـي مـصدر الصوت:

ــ عادل الجندي؟

توقف ووقعت عيناه علي الجالس يشير بإصبعه نحوه. لم يعرف إن كان يستدعيه أو يمنعه من الدخول. عصر ذهنه لبرهـة محـاولا التذكر، بيد أنه لم يفلح، فاستأنف الدخول، لكن الجالس فاجأه:

ــ لا تجيء إلا حينما نطلبك!

ميز الصوت فالتفت مستغربا:

ــ معقولة؟

في مدينة صغيرة بلا لافتات، كان الغريب القادم من بني عبيـد مركز دكرنس كأنه خارج في سبيل الله، يحمل في كتفه حقيبـة بهـا جلباب وشبشب وفوطة وكتاب في النساء والتوليد وخطاب اسـتلام العمل، يسأل أحد العابرين عن سكة المستشفى الأميري. أمام بـاب المستشفى لم يتركه العابر حتى أدخله مكتب الإدارة وأشار إلي سكن الأطباء. في كشك الولادة رآه، وفي المرور علـي الحـالات وفـي عيادة النساء وتنظيم الأسرة وفي غرفة العمليات وحجرة الغيار. لـم يأخذ الغريب الآتي من دكرنس من العابر أصول الولادة والجراحـة فقط، بل أخذ أسلوبه في معاملة المرضى وذويهم وطريقته في اتخاذ القرارات الطبية، حتى طريقته في إبداء الملاحظات. صـرخ مـن الدهشة:

ــ معلمي.. أيها العابر ما هذه الصدفة؟

وأخذه في حضنه، فأذهله الهزال وهو يربت ظهره ويقبل كتفيه:

ــ هل علمت أنك الوحيد الذي نجح من بين ثلاثة وأربعين طبيبا تقدموا لامتحان الماجستير في ٩٢؟

ترقرقت عيناه بالدموع، فيما لم يبد أنه اهتم بما سمع:
ــ المهم كيف حالك؟
ــ ما زلت أحيا كما ترى.
ــ أعرف.. وتزوجت أميمة، وافتتحت مستشفى الحياة، وأسميت أسماء وإبراهيم ومحمد.
ــ الفضل يرجع إليك.
ــ وما أحوال بني عبيد؟
ــ لم أذهب إلي هناك منذ سنوات.
ــ لم تسألني لماذا طلبتك؟
ــ وهل طلبتني؟ مررت بالصدفة ورأيت "عمر أفندي" فتذكرت أشياء تنقصني.
ــ الحقيبة والجلباب والشبشب؟
ــ نعم!
نقره في رأسه بمحبة وعتاب:
ــ أما زلت تعتقد أنها صدفة؟
ألجمته الدهشة. غاب فجأة كل ما حدث خلال عشر سنوات ولم يبق سوى خضوعه القديم، كأنه عاد لتوه من بني عبيد إلي هذه المدينة الصغيرة يسأل عن الطريق إلي المستشفى:
ــ فيم طلبتني؟
أومأ له أن يدخل ويشتري ما انتوى شراءه، وحين خرج نظر مليا إلي الحقيبة وفتحها ثم وضع فيها "شراب الوصل" وأمره أن يتبعه.
سارا باتجاه النهر، وظلا يوغلان في البعد حتى تلاشيا.

(تمت: يناير ٢٠٠٣)